الفصل الرابع

خرائط البناء الفكري الإسلامي

مقدمة

أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري

ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري

ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله

رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري

خامساً خرائط تاريخ الأفكار

سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر

سابعاً: ضوابط قبول الأفكار

خاتمة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع

خرائط البناء الفكري الإسلامي

مقدمة:

عرفنا أنَّ البناء الفكري الإسلامي هو عمل يستهدف إقامة صرح الفكر على قواعد قوية وخرائط منظمة. ومثلما أنّ البناء المادي يحتاج إلى رسم مخططات وتصميم خرائط، فكذلك البناء الفكري يحتاج إلى مخططات وخرائط، ومن ثم ينفَّذ البناء وَفْقها، عبر مراحل محددة، ووسائل معروفة، تبدأ بتوظيف مهارات التواصل اللغوي، وتتواصل بأساليب التعلم والتعليم والتدريب والبحث والدراسة، تفاعلاً مع البيئة الفكرية المحيطة، وتصبح جزءاً من الشخصية، بالوعي على الهوية وتغذية هذا الوعي بالجَهْد الذاتي الذي يقوم به الإنسان؛ تأملاً وتذكراً وتفكراً.

ينظر هذا الفصل في ستة أنواع من خرائط البناء الفكري، تختص بالمصادر، والموضوعات، والوسائل، والتقويم، والتاريخ، والجغرافيا. ويحاول تحديد العناصر التي تكوِّن كلَّ خريطة، ومن ثَمَّ البرامج التي توضع من أجل استمداد الفكر من مصادره، وضمان التنوع والتعدد في موضوعاته والتوسل بما يلزم من الأدوات. والتقويم خطة مهمة في أي برنامج، وعلى هذا الأساس يناقش الفصل مسألة التقدير الكيفي والكمي لمستوى ما يتحقق من البناء الفكري عند الأفراد وعند الجماعات، وذلك بما يمكن أن يُبْنَى من أدوات ووسائل القياس والتقويم، وهو ليس أمراً سهلاً، فالخبرات المتوفرة فيه محدودة، وممارسته ليست مألوفة.

وسوف يلاحظ القارئ أن هذا الفصل موجز أشد الإيجاز، وقد حاولنا أن نقتصر فيه على الفئات الكبرى من المصادر أو الموضوعات أو الأدوات دون تفصيل، فلسنا هنا بصدد وضع برامج محددة للبناء الفكري، بل اكتفينا بالخرائط

العامة التي تلفت انتباه القارئ إلى تلك الفئات الكبرى، ليتم في ضوئها تحديد عناوين مؤلفات وأسماء مؤلفين، فالفئة المستهدفة بأي برنامج هي التي تحدد تفاصيله. ولكن الهم الرئيس هو حاجة الأفراد والجماعات إلى تحديد متطلبات النهوض الحضاري ومتطلباته من جهود الفكر والعلم والعمل.

والخريطة هي مخطط تمثيلي أو صورة تبين عدداً من العناصر، أو المفاهيم، ومواقعها وعلاقاتها، وبذلك تختصر على القارئ رؤية ما سيقرأه في الكتاب أو الفصل، مجتمعاً في مكان واحد، وتذكِّرُه بمجموع ما قرأه ليخرج محتفظاً برؤية كلية له، مما يعينه على استدعاء هذه الصورة الذهنية كلما رأى أو استحضر في ذهنه تلك الخريطة. وتسمى الخريطة في هذا السياق خريطة ذهنية أو خريطة مفاهيم، وهي نتيجة لتفكير الإنسان بما يفكر فيه، ويتوصل إلى الخريطة عندما يستوعب الموضوع ويفهمه جيداً من خلال عملية التحليل والتفكيك للعناصر المكونة، ثم إعادة تنظيمها وتحديد مستوياتها ومواقعها وطرق ارتباطها مع بعضها بعضاً، في تركيب جديد، يبني صورة ذهنية وصورة مرئية في آن واحد. وعملية رسم الخرائط الفكرية أو الذهنية أو المفاهيمية هي إحدى استراتيجيات التفكير التي تسمى "التفكير في التفكير Metacognition."

وقد كان من أساليب النبي ﷺ، التمثيل بالإشارة والرمز والرسم. ومن ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، "قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، وَقَالَ: "هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ

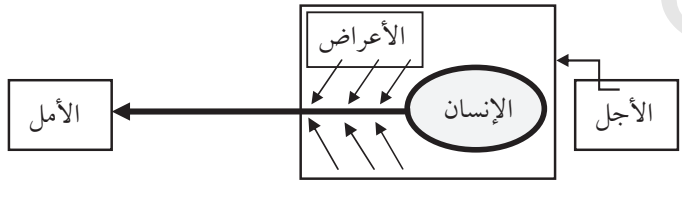

تمثيل تقريبي للخطوط التي يشير إليها نص الحديث النبوي عن أمل الإنسان وأجله

-أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ- وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا."[1] وفيما يأتي خريطة مفاهيمية تجتهد في التعبير عن مضمون الحديث النبوي المشار إليه

ويتضمن هذا الفصل الوقوف على تاريخ الأفكار بوصفه عملية تتبع مجريات الأحداث التاريخية وتفسيرها، وهي أحداث تدل على إرادة الناس وعناصر ثقافاتهم، لا سيّما ما يختص ببيئات العلم والثقافة في كل زمان، وما يعنيه من تفاصيل البناء الفكري الذي سبق الكلام عنه في الفصول السابقة. وللوقوف على حقيقة هذا الأمر وأبعاده، ومن أجل الوصول إلى معطياته سيكون من المفيد كشف الفضاء الثقافي، ومعرفة مراحل البناء الفكري، وتطوره ومستوياته، التي كان ولا يزال الإنسان العربي يتشبث بها عبر العصور، ومر الأيام، وينادي بتشييدها وإحكام بنائها لتبقى دائماً في حالة تجدد واستمرار.

كما تضمن الفصل حديثاً عن موضوع جغرافية الفكر، يلقي الضوء على أثر البيئات الجغرافية المختلفة على خصائص البنية الفكرية التي تتشكل في هذه البيئات، ليس من أثر الطبيعة المادية للمكان (الجغرافيا) فحسب، وإنما أثر التمايز العرقي للشعوب التي تقيم في هذه البيئات الطبيعية، واللغات التي تعبر فيها عن فكرها وثقافتها، ورؤية هذه الشعوب للعالَم، وموقعها فيه، وأحلامها وطموحاتها.

أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري

يبحث الشباب المسلم الذي يريد أن يسير في طريق البناء الفكري عن مصادر البيانات والمعلومات والمعارف التي يلزم أن يحصل عليها. وقد يكون من المفيد في البداية التأكيد على أهمية التمييز بين أنواع مختلفة من مصادر البيانات، سواءً كان ذلك في الأشخاص، أو الكتب، أو المجلات والدوريات أو المواقع الإلكترونية، ومنها:

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله حديث رقم ٦٤١٧ ص ١٥٩٩.

١- مصادر بيانات المعرفة المتخصصة، وهي مصادر الاستزادة والنمو في مجال التخصص العلمي؛ إذ يتوقع أن يواصل كل شخص القراءة والاطلاع في مجال تخصصه، ليتابع الجديد فيه، وربما ليتعمّق ويبدع فيه.

٢- مصادر بيانات في ثقافة التخصص، مِمَّا يُعدُّ امتداداً لموضوع الاختصاص، لكنه أقرب إلى التبسيط لغير المتخصص، وأقرب إلى مجالات التطبيق العملي الذي يستقطب اهتمام العامة من الناس، مثال ذلك كتب الثقافة الطبية، والثقافة التكنولوجية، والثقافة اللغوية، والثقافة الفقهية، والثقافة التاريخية... إلخ. فإذا كان من المهم أن يتقن الفقيه لغة الفقه، ويمتلك أساليبه ويتحقق بضوابطه وشروطه، ويتحدث مع جماعة الفقهاء والمتخصصين في علوم الشريعة بلغة علمية تكشف عن فقهه، ويستحضر الأحكام الفقهية الخاصة بالمسائل المعروضة، ويحسن استنباط الأحكام الخاصة بمسائل جديدة حتى يستحق صفة الفقيه، فإن من المهم كذلك أن يحسن خطاب فئات الناس من التخصصات المختلفة، ويحسن خطاب العامة من غير أهل التخصص. ولا يحتاج في ذلك إلى اللغة العلمية المتخصصة، وإنما يلزمه تبسيط الخطاب، لغة وأسلوباً، واستحضار الأمثلة التقريبية والوقائع العملية التي تجعل فقهه ثقافة متاحة للناس كافة، وهذا ما نسمِّيه الثقافة الفقهية.

٣- مصادر بيانات في الثقافة العامة، ولا تصنف هذه المصادر عادة ضمن تخصص محدد، لكنها تتضمن بيانات ومعلومات وحقائق ومفاهيم تتطلبها الحياة الثقافية العامة، ومتابعة القضايا التي تكون مُثارَة في الإعلام ومنابر التوجيه، وتشغل مساحات ليست قليلة من اهتمام الناس والرأي العام، وتستهدف توسيع دائرة اطلاع الفرد، وإذا كان لا بد من تصنيفها إلى مجالات معرفية فسنجد أنَّها تنتمي إلى تنوع واسع من هذه المجالات مثل: التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والاقتصاد، والإعلام، والفن،

والسير الذاتية للمشاهير، وغير ذلك. ولا يبذل القارئ لهذه المصادر جهداً كبيراً في البحث عنها، لأنَّها الخبرات المتراكمة في الحياة اليومية، مع شيء من الاهتمام في تذكرها وتداولها مع الآخرين، والحرص على جمعها والإفادة منها حيثما أتيحت له.

٤- مصادر بيانات فكرية، وهي مصادر تنتسب في الغالب إلى مدارس فكرية محددة، أو تقدم تحليلات نقدية للمصادر الخاصة بهذه المدارس. وتتداخل هذه المصادر مع مصادر الثقافة العامة، لكنها أكثر تحقيقاً وتحديداً وعمقاً، ويسعى القارئ إليها سعياً حثيثاً، ويجتهد في البحث عنها، والتفاعل معها، ولا يكتفي بالاطلاع العابر عليها، وإنّما يجتهد في تتبع الأفكار ويتفحص أدلتها ويقارنها بغيرها، وقد يتبنّاها ويصبح داعية إليها، مدافعاً عنها، أو يرفضها ويجتهد في نقدها أو نقضها. وضمن هذه الفئة من المصادر الأفكار التي يستقيها الفرد من مدرسة فكرية معينة ينتمي إليها، ويشترك في جل هذه الأفكار مع كلِّ المنتمين إلى تلك المدرسة.

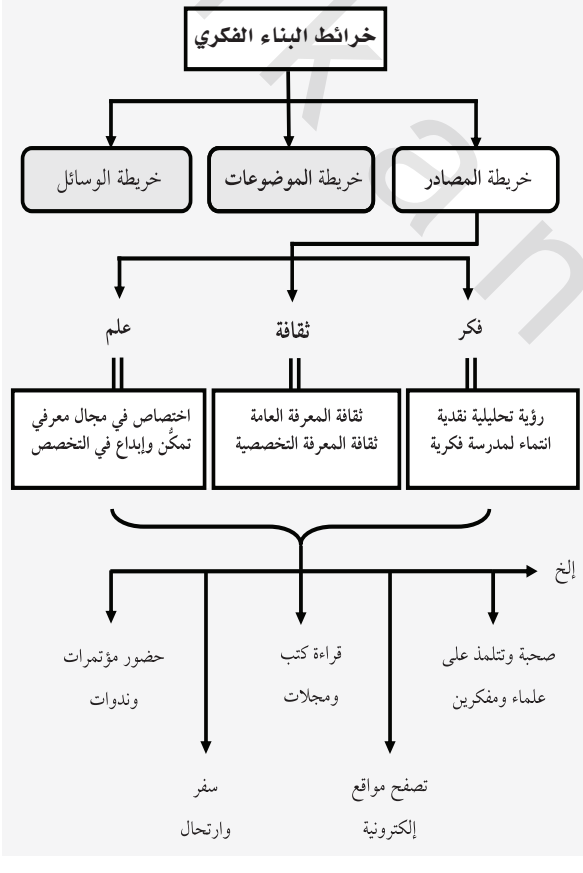

ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري

يعتمد البناء الفكري على المصادر المتنوعة التي تمت الإشارة إليها، وفي السياق الإسلامي تبدو الحاجة ماسة إلى أن تركز الكتب والبحوث والحوارات -التي تفيد في البناء الفكري- على إعادة بناء رؤية كلية للعالم، تمكن الإنسان من إدراك وفهم القضايا والموضوعات المثارة في الفكر المعاصر ضمن هذه الرؤية، بصورة تتصف بالوضوح والتكامل والانسجام. لا سيما الموضوعات التي يكثر حولها الجدل وتتفاوت فيها آراء عامة الناس، والمثقفين منهم على وجه الخصوص، وربما النخب الفكرية كذلك. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال:

١- موضوعات بناء الأمة: وهي اللغة والدين والتاريخ. ذلك أن هذه الموضوعات هي التي تبني الهوية الإسلامية العامة للفرد والمجتمع والأمة، وتحدد من ثم علاقة هذه الهوية بالهويات والانتماءات الفرعية الأخرى مثل الوطنية والقومية والعشائرية والمذهبية...إلخ.

أ- سيتم الحديث عن اللغة والفكر في مكان آخر من هذا الكتاب بشيء من التفصيل، والذي يهمنا الآن التأكيد على قدرة الإنسان أن يفكر بلغته الأم ويعبر عما يطوره من فكر بلغة سليمة تكشف عن هويته وانتمائه، وتمكنه من التأثير الإيجابي في الآخرين. واللغة في هذا السياق تعني أساليب التواصل والتفاعل اللغوي المتاحة، بالمحاضرة والحوار والمقال والكتاب... إلخ. فقيمة الفكر الذي ينتجه المفكر في فعله وأثره في الآخرين، وكيف يتسنى لهذا الفعل والأثر أن يتحققا دون التواصل اللغوي المناسب؟

ب- وقد أكدنا أكثر من مرة أننا في هذا الكتاب نتحدث بمرجعية دينية إسلامية، والدين في رؤيتنا نظام توحيدي عام يشتمل على العقيدة التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى، وعلى الشريعة التي تفصل أنظمة

الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى الأخلاق التي تفصل معايير التزكية الفردية والجماعية وأنماط السلوك والمعاملات. لكن هدف الدين هو هداية الإنسان لتمكينه من تحقيق الاستخلاف البشري في الأرض، وإقامة العمران، وبذلك يتحقق معنى العبادة. وسوف يساعدنا هذا في تحديد فهمنا وموقفنا من الجدل الذي لا يزال دائراً منذ قرنين ونيف عن موقع الدين في الدولة الحديثة وحكم في أنواع المشاركة السياسية ومستوياتها.

ت- أما التاريخ، فإننا نقصد به في هذا المقام تاريخ البشر على الكوكب الأرضي، واستيعاب ما كان فيه الخبرات والتجارب البشرية، والاعتبار بها. ومنهج القرآن الكريم في الحديث عن الأمم والأقوام وعن رسالات الأنبياء، وعن مسؤولية الأمة الإسلامية في صناعة الجزء المتبقي من تاريخ البشرية على هذه الأرض، والشهادة على الناس. وهذه رؤية للتاريخ ربما تختلف عما ألفناه من معنى التاريخ، وطريقتنا في عرضه. إنه رحلة البشرية وتجربتها وتراثها عبر الزمن، وما اهتدت إليه هذه البشرية من فكر وثقافة وحضارة. وفي هذا التاريخ بما في ذلك تاريخ المسلمين، أفكار حية وأفكار ميتة وأفكار مميتة، ينبغي التمييز بينها والتعامل معها.

٢- موضوعات القضايا المثارة والقضايا التي يلزم أن تثار، فالإعلام المعاصر ينقل للناس بوسائله الفعالة أخباراً وأحداثاً من كل أنحاء العالم. ويثير معها قضايا محددة ومشكلات تتجدد من يوم لآخر، ويتواصل الجدل حولها ويطلب إلى المفكر إن يكون له فهم لها وربما موقف منها. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال:

أ- الفهم الإسلامي الإجمالي للآخر غير الإسلامي داخل المجتمع المسلم وخارجه، وأحكام العلاقات الدولية مع الدول والمنظمات العالمية، وتحرير مفاهيم الجهاد والتحالف والتعايش.

ب- قضايا المرأة؛ حقوقها وواجباتها وعملها.

ت- قضايا الاقتصاد والتنمية والبنوك.

ث- إلخ.

وهذه أمثلة على القضايا وليس حصراً كاملاً لها. لكن الذي يلزم ملاحظته أنَّ البناء الفكري لا بد أن يشكِّل لدى الفرد والجماعة رؤيةً للعالم، وهي رؤية كلية تعينه على فهم هذه القضايا والموضوعات وأمثالها، واتخاذ موقف إسلامي تجاهها.

وموضوعات الزاد الفكري الذي يسهم في بناء الرؤية الكلية ويقيم البناء الفكري المتوازن، أنواع متعددة، كل نوع منها يسهم في جانب مهم من البناء الفكري

النوع الأول: كتابات في الفكر الإصلاحي والنهضوي، وتعالج هذه الكتابات قضايا الفكر والبناء الفكري، والتفكير وأنواعه ومستوياته، ودراسات في تاريخ الحضارات الإنسانية وشروط قيام الحضارات وأسباب انهيارها، وما يرافق ذلك من صور الصراع الفكري، أو الاقتراض الثقافي والحضاري. ومن الكتابات التي تقع ضمن هذه الفئة علوم متفرعة عن التاريخ مثل: فلسفة التاريخ، وتاريخ الأفكار. والمهم في هذه الدراسات هو ملاحظة البعد الفلسفي للتاريخ وامتداداته في الحاضر والمستقبل، وتشكيله للأساس العملي للتفكير الاستراتيجي المستقبلي.

النوع الثاني: مداخل العلوم الاجتماعية والإنسانية، وليس المقصود من أدبيات هذه المداخل في هذا السياق المعرفة المتخصصة في علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، وعلم الاتصال، وغيرها، وإنما يكفي فيها الإلمام بالمفاهيم والقوانين والنظريات والتطبيقات العملية، واستحضار ذلك عند التفكير في المشكلات المثارة لفهمها والمشاركة في اقتراح الحلول

الممكنة لها. ولعل أهم العلوم التي يلزم الإلمام بمداخلها هي علم الاجتماع وعلم السياسة، وعلم الإعلام.

النوع الثالث: أدبيات ومداخل في علوم التغيير ونقصد بها هنا على وجه التحديد: الإدارة، والمنهجية، وعلم النفس. ويتضمن علم الإدارة تطبيقاته في إدارة الوقت، وإدارة الذات، وإدارة الجماعات، ويتضمن علم المنهجية تطبيقاته في التفكير والبحث والسلوك، والتكامل المنهجي، والمدارس المنهجية. أما علم النفس فيتضمن قضاياه الأساسية في التعلم والنمو والتغيير.

إنَّ علينا أن نلاحظ أنَّ الطرق التي يتم بها البناء الفكري طرق مختلفة، ومن المهم أن نحرص على أن تتراكم فعاليات هذه الطرق وتتآزر آثارها. فمن مسؤولية الفرد أن يكون واعياً على التفاعل الفطري بين عمليات التطبُّع، والتنشئة الاجتماعية، ومن مسؤوليته توظيف التعليم القصدي، والتزكية النفسية بتصفية النية، وحسن الاتباع، وصناعة الإبداع. ومن مسؤولية الأسرة والجماعة والتنظيم أن يتعزز لدى هذه الجهات من هذا الوعي وهذا التوظيف ما يكفي لتحقيق البناء الفكري، وتوفير البيئة الملائمة لظهور آثاره ونتائجه المنشودة.

ومهما كان المحتوى العلمي للفكر البشري، علوماً شرعية أو طبيعية أو اجتماعية ... فإن تحليل هذا المحتوى يكشف عن عناصر ذات مستويات متفاوتة في مقاديرها الكمية، وخصائصها الكيفية، وثمة علاقات بنيوية ووظيفية بين هذه العناصر. ومجموع عناصر هذا المحتوى العلمي تظهر في بناء هرمي له قاعدة وقمة. ففي قاعدته في أي علم من العلوم، تتموضع حقائق ذلك العلم، وتكون الحقيقة الواحدة منها تعبيراً عن شيء محدد، بما هو في ذلك الشيء اسماً أو صفة، وعدد هذه الحقائق في أي علم من العلوم عدد كبير جداً، ويسهل ملاحظة التطابق بين التعبير اللغوي عن الشيء الحسي أو الأمر المعنوي من جهة، وحقيقة ذلك الشيء أو الأمر بصورة تكون أقرب إلى الإحساس المادي المباشر. وتمثل هذه القاعدة الأساس الأول للبناء المعرفي للعلم.

ولما كانت الحقائق كثيرة جداً فإن العقل البشري يقوم بالربط بين العدد الكبير من الأشياء التي تتشابه في عدد من الخصائص البشرية، فيطلق عليها لفظاً مشتركاً، هو المفهوم،[1] فالإنسان هو مفهوم ينطبق على كل فرد من الناس بغض النظر عن لونه ولغته وعرقه...، والسمك هو مفهوم ينطبق على أفراد الكائنات البحرية التي تعيش في الماء وتتنفس بالخياشيم، والبيع مفهوم لإعطاء أية سلعة مقابل ثمن... فالمفاهيم هي طبقة أو مستوى آخر في هرم العلم يقع فوق الحقائق، وهي أكثر تعميماً وتجريداً من الحقائق. ومفاهيم كل علم على كثرتها هي أقل عدداً من حقائق ذلك العلم.

والمعرفة البشرية تقيم علاقات بين المفاهيم، علاقات ارتباطية أو سببية، وكل علاقة يمكن أن تصاغ بصورة قاعدة أو مبدأ أو قانون أو معادلة رياضية. ففي المعاملات التجارية يقوم البائع بعرض البضاعة التي يطلبها المشتري، وبين العرض والطلب علاقة يمكن أن تصاغ في صورة قانون، هو "قانون العرض والطلب." وفي كل علم من العلوم قوانين تربط بين مفاهيم ذلك العلم، ففي الكيمياء قوانين، وفي الاقتصاد قوانين، وفي اللغة قوانين، وهكذا. ونظراً لأن كل قانون يختزل في صياغته كثيراً من المفاهيم فإن القوانين أقل عدداً من المفاهيم، ولكنها أكثر تجريداً. وتمثل طبقة أعلى في البناء الهرمي للعلم، تقع فوق طبقة المفاهيم.

ومن الجدير بالذكر أن الحقائق والمفاهيم والقوانين، هي (مستويات وصفية)، تعبر عن واقع الأشياء كما هي عليه، لكنها لا تفسر سبب وجود هذه الأشياء على ما هي عليه. والذي يفسر ذلك كلَّه هو مستوى آخر من مستويات البناء المعرفي للعلم، وهو رأس هرم المعرفة، وهو النظريات. فكل نظرية تتكون من مجموعة من المبادئ التي تفسر ظاهرة من ظواهر العلم. ففي كل علم

(١) يختلف استعمال مصطلح المفهوم حسب المجال المعرفي ففي المنطق هو تصور ذهني، وفي اللغة هو معنى وضعي (اصطلاحي) يشير إلى اللفظ الذي يدل على حقل دلالي عام، انظر:
– كوريم، سعاد. الدراسة المفهومية: مقاربة تصورية ومنهجية. **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدد ٦٠، ربيع ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٦٥.

مجموعة من النظريات التفسيرية، تكون عادة أكثر تجريداً من مستويات البناء المعرفي التي تسبقها، ويكون عدد النظريات في كل علم قليلاً. وإذا كانت وظيفة الحقائق والمفاهيم والقوانين هي الوصف، فإن وظيفة النظريات هي التفسير.

وقد يكون من المناسب أن نستدرك هنا بالقول: إن هرم المعرفة بالصورة المبينة أعلاه قد استخدم بصورة توضيحية جيدة، في التعبير عن مفردات المعرفة العلمية والعلاقات القائمة بينها في العلوم الطبيعية، من فيزياء وكيمياء وأحياء، لكن ذلك يمكن أن يصدق على العلوم الأخرى، ولعل الفارق هو في تمايز الفئات والأنواع والأمثلة في كل مستوى من المستويات، فقد تكون أنواع الحقائق العلمية الطبيعية وأصنافها مختلفة عنها في العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية. فالحقائق المفردة عن أشياء الكون وأحداثه غير الحقائق الوجودية الكبرى عن أصل الكون ومصيره. كذلك فإن نوع التداخل أو التمايز بين مفردات المعرفة في هذه المستويات قد يتأثر بالتعبيرات التي توفرها اللغة عنها. فمصطلح (Fact) باللغة الإنجليزية لا يقابل تماماً مصطلح "حقيقة" باللغة العربية. وهكذا في عناوين المستويات المعرفية الأخرى.

وثمة طريقة أخرى في التعبير عن مستويات المعرفة العلمية في أي علم من العلوم. وفي هذه الطريقة نعبر عن أبسط أشكال المعرفة بمصطلح البيانات (data) التي تقابل الحقائق في هرم المعرفة، ومجموعة البيانات ذات العلاقة بموضوع واحد تشكل ما نسميه (المعلومات)، وهي مستوى أعلى في الدلالة والمعنى. وإذا أمكن توظيف المعلومات لغرض معين وتحقق ذلك بالفعل، فإن المعلومات تصبح معرفة، وتشكل هذه المعرفة مستوىً ثالثاً، وهي بطبيعة الحال ذات مستوى أعلى في الدلالة والمعنى من المعلومات.

وأخيراً فإنَّ الغرض من تطبيقات المعرفة وتوظيفاتها في الرُّقِيِّ بالنفس والمجتمع نحو آفاق مفتوحة من رؤية العالم، والإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى، يفتح المجال لمستوى رابع يتجاوز المعرفة نحو ما يطلق عليه (الحكمة).

وبدلاً من تصوير هذه المستويات الأربعة في صورة هرم مشابه لهرم المعرفة السابق، فإن يحلو لنا أن نتخيل العلاقة بينها في صورة مدى الاتساع الفكري في الدلالة والمعنى والقيمة. وفي هذه الحالة فإن البيانات تكون أضيق المستويات، يليها المعلومات التي تكون دلالتها أوسع وأعلى قيمة، ثم تكون المعرفة أوسع دلالة وأعلى قيمة من المعلومات، وأخيراً تظهر الحكمة في أفق مفتوح نحو الأعلى تعبيراً على المدى الواسع الذي لا يحده سقف.

وفيما يلي رسم تخطيطي يوضح المستويات الأربعة من مفردات المعرفة، في صورة هرم معتدل على يسار الشكل، والمستويات الأربعة لتوظيف مفردات المعرفة في صورة موازية لمستويات الهرم على يمين الشكل.

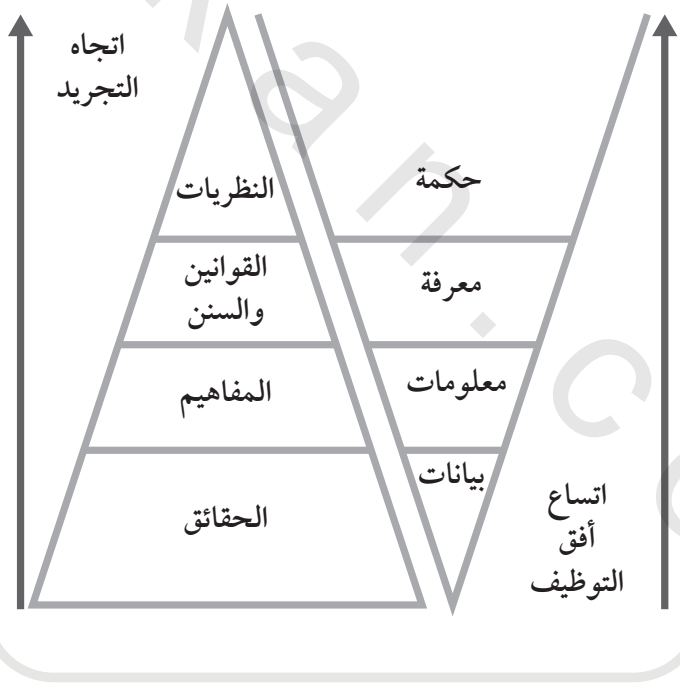

هرم المعرفة وآفاق توظيفها مفرداتها

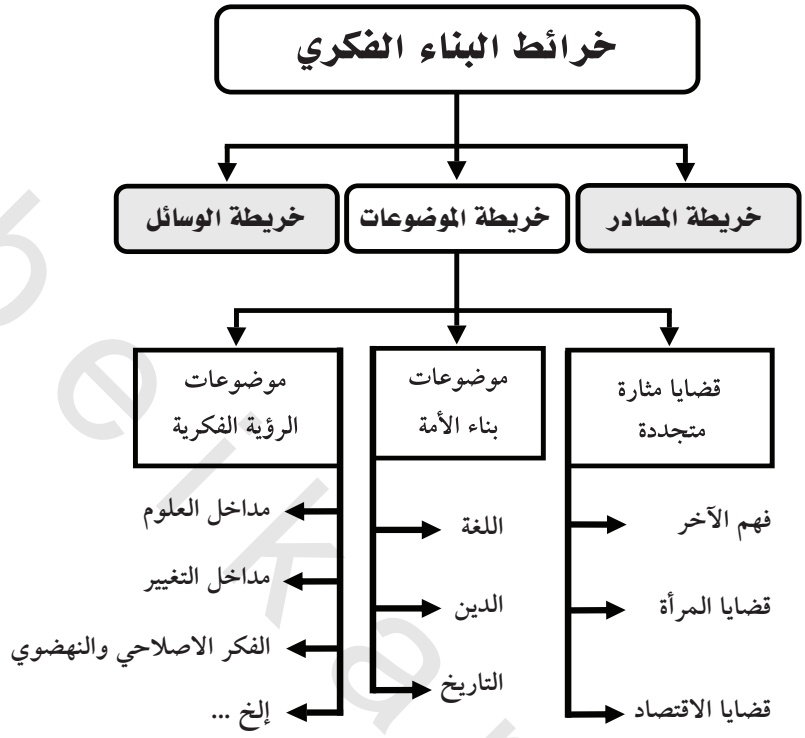

ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله

أما أدوات البناء الفكري ووسائله فهي كذلك متعددة، ونشير في هذا المقام إلى القراءة، التي تعدّ النشاط الأساسي لتغذية العقل البشري، والوسيلة الأكثر أهمية للتعلم والتشكيل الثقافي والفكري للفرد، ولا نقصد بها قراءة الهواية والتسلية، وإنما القراءة القاصدة، الهادفة، المبرمجة؛ القراءة بأنواعها ومهاراتها؛ القراءة المتأنِّية، المتدبِّرة، المتفكِّرة، المتذكِّرة؛ القراءة الكلية والقراءة النقدية؛ القراءة التي تضع جزئيات النص المقروءة ضمن إطاره المرجعي، وتضع الإطار المرجعي للنص ضمن النظام المعرفي الذي ينتسب إليه، وهكذا.

وليس عبثاً أن تكون الكلمة الأولى من كتاب الله الأخير إلى البشرية هي فعل الأمر: اقرأ، وأن الأمر بها يأتي مرتين متتاليتين؛ مرَّة لقراءة الخلق باسم الله، ومرة لقراءة الوحي المكتوب بالقلم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥] وأن تبقى كلمة اقرأ عهدَ الله للبشر الباقي إلى قيام الساعة، تقول للناس: انتهت عهود الأمية بعد نزول هذه الآيات. فما يُقرأ إذاً هو ما يشاهد من أصناف الخلق الإلهي، وخلْقُ الإنسانِ من عَلَق نموذجٌ لما يخلق، يتطلب التفكر والتدبر العلمي والدراسة المتأنية لهذا الخلق وتطوُّره من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم من عظم ولحم، حتى يكتمل خلق الإنسان، فتبارك الله أحسن الخالقين! وتتم هذه الدراسة باستخدام مناهج البحث وأدواته وأساليبه من مشاهدة وقياس وتجربة ما تتطلبه دراسات أصناف الخلق، وأشيائه وأحداثه وظواهره. وما يقرأ كذلك هو ما يسطره القلم الذي جعله الله سبحانه أداة للعلم والتعلّم والتعليم. سواءً كان ذلك مما نزل من كتب الوحي، أو ما نطقت به ألسنة الأنبياء، أو دونه أهل العلم في الكتب جيلاً بعد جيل في سائر ميادين العلم والمعرفة.

وتستدعي علاقة البناء الفكري بالقراءة أن تقرأ بعض النصوص وبعض الكتب مرة بعد مرة. ويمكن استكمال أهداف القراءة لنصٍّ معين وتحقيق الفائدة من قراءته، عندما يُقرأ معه ما يرتبط به من نصوص أخرى من مصادر المعرفة المشار إليها سابقاً، فتحدث عمليات عديدة من التذكر، والتفكر، والموازنة، والمقارنة، والتكامل. وعندها يضيف القارئ إلى بنائه الفكري فكرة أو جملة من الأفكار، ولو انتقل القارئ من القراءة إلى الكتابة فإنه يكون قد قيَّد الأفكار وضبطها ونظمها، وأصبحت إنتاجاً معرفياً مكتوباً ومادة للقراءة له ولغيره من القراء.

وكثير من الإبداع في صياغة الأفكار وكتابتها إنما يتم بعد قراءات متعددة، يكتشف فيها القارئ – الكاتب الخطأ أو القصور أو التهافت فيما يقرأ، فيقدم

الكاتب صياغة أخرى تؤدي مهمة التصويب أو التكميل، أو يقوم بالنقض الكلي للفكرة المقروءة ويقدم فكرة جديدة تماماً.

إن سعة الاطلاع عن طريق القراءة تمكّن القارئ من مناقشة الأفكار التي يقرأها مع الآخرين، فيكون في هذه المناقشات تفاكر وتذاكر، يؤدي إلى مزيد من الفهم عند المشاركين في التفاكر والتذاكر، وربما يتحول التفاكر والتذاكر إلى مادة مكتوبة، تجد من يقبل على قراءتها. وبالقراءة والكتابة تتبلور الأفكار التي تكوّن موضوعاً للمحاضرات، والندوات، والمؤتمرات، وتكون كذلك مشاريع البحوث والدراسات، التي يرافقها كثير من القراءة قبل الكتابة. وهكذا تتواصل عملية الإنتاج الفكري بالقراءة والكتابة. وهكذا تتواصل عمليات البناء الفكري.

نلاحظ هنا أنّ القراءة وسيلة من وسائل البناء الفكري، وهي أساس لمعظم الوسائل الآخرى التي أشير إليها بإيجاز، من تفكر وتفاكر، وتذكر وتذاكر، ومحاضرة وندوة ومؤتمر، وبحث ودراسة.

ولكننا في النهاية لا بد أن ننوِّه بوسيلة مهمة لا ينبغي نسيانها، وهي وسيلة صحبة العلماء والمفكرين والمصلحين وأصحاب الخبرات المتميزة، والرحلة للقائهم، والاستماع إليهم، والتتلمذ عليهم. ففي التاريخ البشري كانت وسيلة اكتساب العلم والمعرفة والخبرة، من الآخرين الذين يملكونها، ومن ثم الاقتباس من علمهم وخبرتهم، والاهتداء بهديهم، والاقتداء بسيرتهم، هي الوسيلة هي المتاحة والأكثر أهمية. والأنبياء والرسل في المدى الأطول من تاريخ البشر كانوا هم مصدر العلم والهدى، فكان لهم أتباع آمنوا بما جاءوا به من عند ربهم، ثم توارثت الأجيال تعاليم الأنبياء والرسل حتى يومنا هذا. ومثل ذلك يقال عن العلماء والمصلحين والفلاسفة وأقطاب الصوفية الذي كانوا مصادر يستمد منهم أتباعهم مذاهب في الفقه، ومدارس في الفكر، وطرقاً في السلوك.

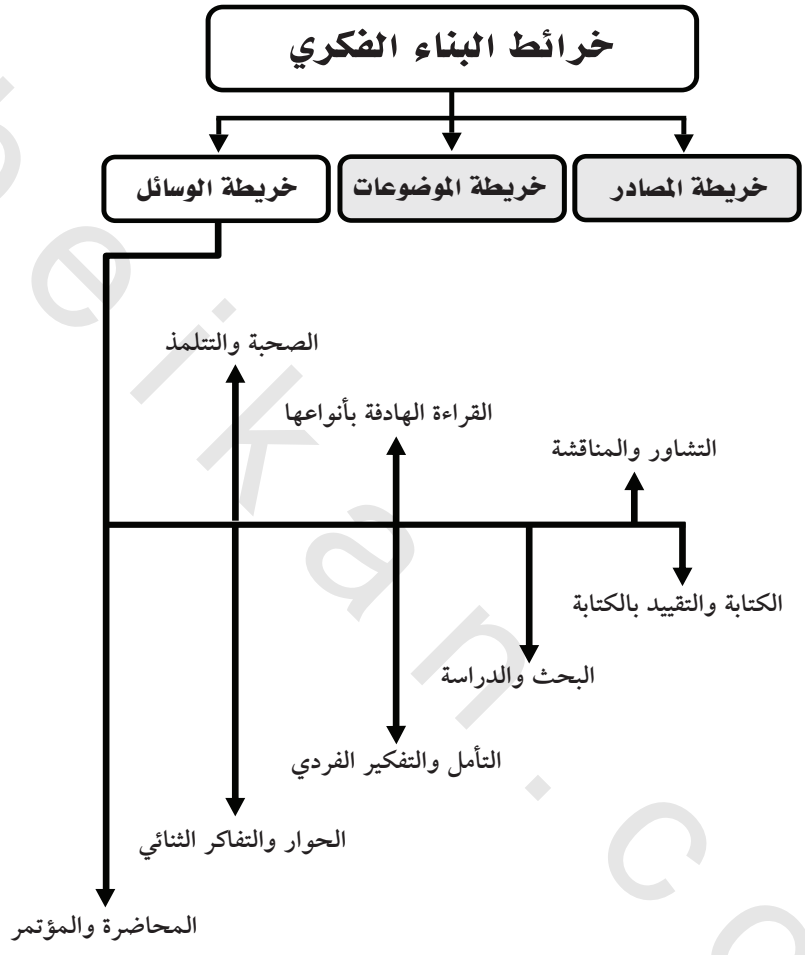
خرائط البناء الفكري
خريطة المصادر
خريطة الموضوعات
خريطة الوسائل
الصحبة والتتلمذ
القراءة الهادفة بأنواعها
التشاور والمناقشة
الكتابة والتقييد بالكتابة
البحث والدراسة
التأمل والتفكير الفردي
الحوار والتفاكر الثنائي
المحاضرة والمؤتمر

obeikan.com

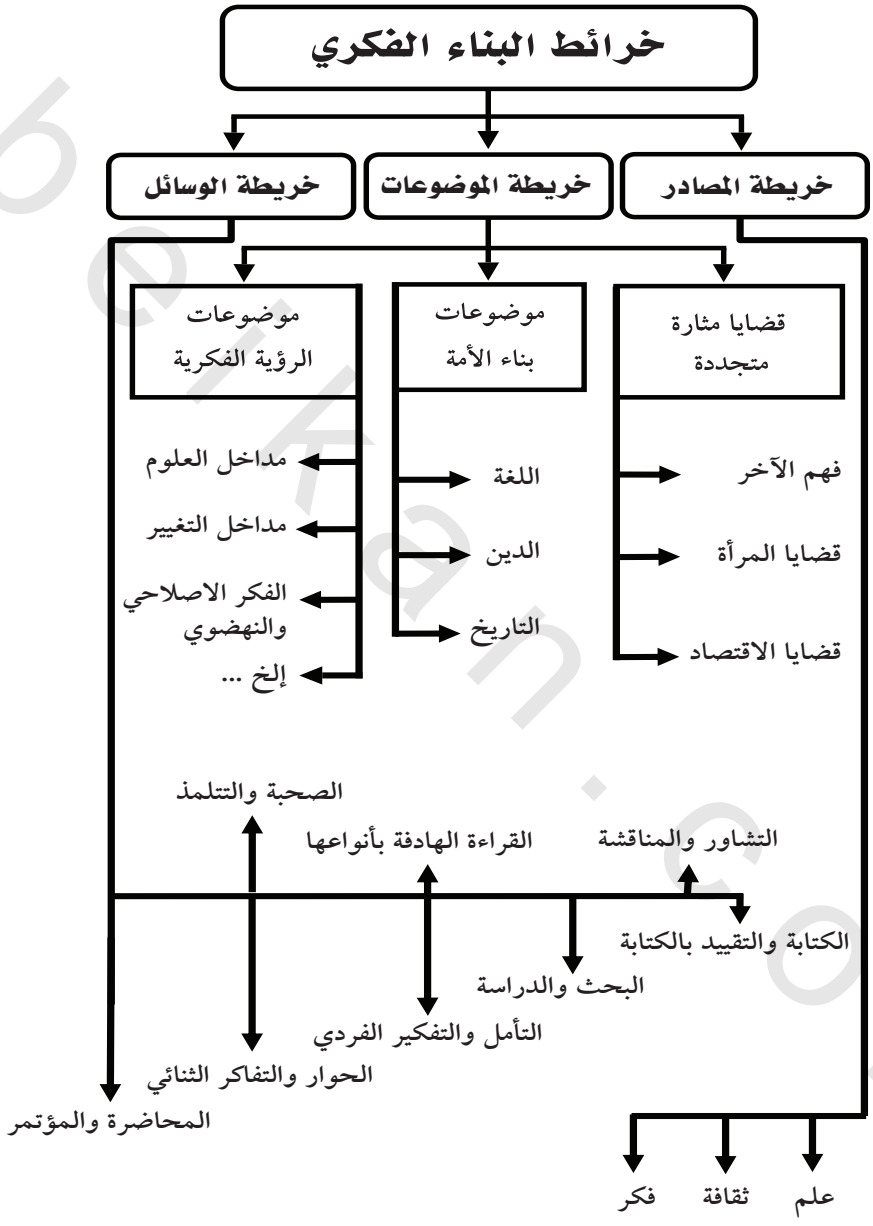
خرائط البناء الفكري
خريطة المصادر
خريطة الموضوعات
خريطة الوسائل
قضايا مثارة متجددة
موضوعات بناء الأمة
موضوعات الرؤية الفكرية
فهم الآخر
قضايا المرأة
قضايا الاقتصاد
اللغة
الدين
التاريخ
مداخل العلوم
مداخل التغيير
الفكر الاصلاحي والنهضوي
إلخ ...
الصحبة والتتلمذ
القراءة الهادفة بأنواعها
التشاور والمناقشة
الكتابة والتقييد بالكتابة
البحث والدراسة
التأمل والتفكير الفردي
الحوار والتفاكر الثنائي
المحاضرة والمؤتمر
علم
ثقافة
فكر

obeikan.com

رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري

إذا كنا بصدد تقويم كفاءة برنامج معين في البناء الفكري، فما الأداة المناسبة لاستخدامها في هذا التقويم، ومتى نستخدمها؟ وإذا احتجنا إلى وصف ما تملكه فئة محددة من فئات المجتمع من بناء فكري، فهل نجري اختباراً لكل فرد في هذه الفئة، ثم نجد الوسط الحسابي لمجموع الأفراد، ثم نجد مقدار ما يملكه كل فرد بالنسبة إلى ذلك الوسط؟ ما الإطار المرجعي الذي يمكن التفكير به لتحديد المستوى المنشود لنوعية البناء المعرفي، أو مقداره، عند فرد أو فئة أو مجتمع؟ هل نستطيع أن نبنِيَ مقياساً مقنَّناً في البناء الفكري؟ ما الخصائص الكيفية والكمية التي يمكن أن نستخدمها في هذا القياس؟ وما وحدات القياس التي تصلح لهذا الغرض؟

إنّ الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة في بُعْدها العلمي – التعليمي "الأكاديمي" تفتقر إلى أدوات القياس المقنَّنة في معظم مجالاتها، وأكثر الحلقات ضعفاً في مجال القياس هو القياس النفسي والعقلي. ورغم التطور الكمي الكبير في إنشاء المدارس والجامعات، فإنَّ البرامج التعليمية والمناهج الدراسية التي استخدمت في هذه المؤسسات كانت في الأغلب استيراداً فكرياً وثقافياً. وقد تكون بلادنا قد اكتسبت شيئاً من الخبرة الذاتية في تطوير عناصر المنهاج التعليمي في الأهداف والمحتوى والأساليب، إلاّ أن الخبرة في العنصر الرابع؛ أي التقويم كانت هي الحلقة الأضعف. فلا نزال نستورد اختبارات الذكاء، والشخصية، ومقاييس الاتجاهات وأدوات استطلاع الرأي، وغيرها من أدوات وبرامج القياس والتقويم.[1]

وقد شاعت في العقدين الأخيرين أفكارٌ تتصل بتقويم أداء المؤسسات

(١) ربما تصلح هذه الظاهرة "ظاهرة الضعف في خبرات القياس والتقويم التعليمي والتربوي" في البلاد العربية أن تكون موضوعاً للبحث والدراسة، واستقصاء علاقة هذا الضعف بمجمل البناء الفكري للنخبة العلمية المتخصصة، أو بخصائص البنية المؤسسية لسياسات التعليم، أو بالثقافة الإدارية للعاملين في هذه المؤسسات.

التعليمية، تحت شعارات ضبط الجودة، وهي كذلك أفكار مستوردة اقتصرت في الغالب على جوانب التوثيق والتدوين لمدى وجود عناصر محددة أو "أشياء" معينة في المؤسسات التي يجري تقويمها، دون إعطاء الاهتمام الأكبر بكفاءة العاملين في المؤسسة في استعمال هذه الأشياء. بل إنك لتسمع عن جامعات استعدت لزيارة مؤسسات الاعتماد الجامعي للجامعة، فاستعارت بعض "الأشياء" من أماكن أخرى، وضبطت بعض الأرقام والنسب والموازنات لتتواءم مع معايير الاعتماد، فإذا انتهت الزيارة، وأخذت اللجنة البيانات المطلوبة، سرعان ما تعاد الأشياء المستعارة إلى أماكنها الطبيعية، وانتهت الحاجة إلى الأرقام والنسب والموازنات المزيفة.

في ظل هذا الواقع الكئيب في مستوى الخبرة في بناء أدوات القياس والتقويم، لا غرابة أن نجد ضعفاً شديداً في تطوير أدوات مناسبة لقياس البناء الفكري للأفراد أو الفئات أو المؤسسات أو المجتمعات. وحينما نجد بعض أدوات القياس الفكري التي جرى استيرادها وتطويرها لتتلاءم مع البيئة المحلية، سنجد أنها تختص غالباً بذوي الإعاقات، والحاجات التعليمية الخاصة، فمثلاً نلاحظ أن مصطلح التربية الفكرية، وأدوات التقويم الخاصة بها، يستخدم للتعامل مع هذه الفئة تحديداً.

ونحن في هذا المقام وقياساً على ما قدمناه من أنَّ البناء الفكري هو حديثٌ عن عملية البناء ومهاراتها، وعن محتوى الفكر وموضوعاته، فإنَّنا نؤكد الحاجة الماسة إلى نوعين من المقاييس والاختبارات هما:

- مقاييس العمليات الفكرية، أو درجة ممارسة العمليات أو المهارات العقلية لدى فرد أو فئة من الأفراد، لإعطاء وصف معين لمقدار ونوعية ما يمتلكه الفرد أو الفئة من القدرة على أداء عمليات فكرية معينة.
- مقاييس درجة امتلاك محتوى محدد من البنية الفكرية بحسب الخريطة الفكرية التي تتوزع فيها عناصر هذا المحتوى، أو بحسب القيم النسبية للدرجة التي يطلب بها امتلاك هذه العناصر.

وللتمثيل على مقاييس الأداء الفكري، يمكن أن نستحضر الاختبارات والمقاييس المستعملة في قياس مهارات التفكير العلمي، أو مهارات التفكير المنطقي، أو مهارات التفكير الإبداعي، أو النقدي، أو مهارات التفكير "من خارج الصندوق" أو القدرة على حل المشكلات... إلخ.

صحيح أنَّ المرجعيات الكمية والكيفية لمعظم هذه الاختبارات هي مرجعيات علم النفس وعلم التربية في مصادرها الغربية، وأنَّ جهوداً مقدرة قد بذلت في هذا المجال من أجل تكييف هذه الاختبارات من تطبيقها في مجالات التحصيل العلمي والتعليمي في بلادنا، لكن أكثر هذه التطبيقات كانت في مجال اللغات والرياضيات والعلوم، وقليل منها في مجالات العلوم الاجتماعية، وأقل من القليل في مجال دراسات العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي.

كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟ هل كان العقل المسلم أقل قدرة من غيره من العقول على تطوير أدوات التقدير والقياس وضبط المستوى؟ هل كان الأمر يتعلق بشيء من الإهمال المقصود أو غير المقصود للعلوم الإسلامية وموضوعات الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية والتربية الإسلامية... إلخ، بالمقارنة مع الموضوعات الأخرى في العلوم والرياضيات واللغات؟ هل كان الأمر يتعلق بوفرة أنماط البضاعة في مواقع المنشأ في الدول الغربية، ولذلك كان يتم استيراد ما يتوفر منها؟

لقد كان للعقل المسلم قصب السبق في كثير من ميادين التفكير المنهجي، وتطوير نماذج الفكر، وأدوات تقويم الخبرة والكفاءة في التفكير والأداء، فقد عرفت علومُ الحديث النبوي الشريف ولا سيّما علوم: العلل، والرواية والدراية، والرجال، والجرح والتعديل، ما أصبح بعد ذلك علوماً نقدية بامتياز، وكان علم أصول الفقه علماً منهجياً بامتياز، ونمت منهجية التفكير العلمي المعتمدة على المشاهدة والقياس والتجريب وتطورت في المجتمع الإسلامي قبل أن يعرفها أي مجتمع آخر، وتميز ابن خلدون مثلاً

باختبار الروايات التاريخية في ضوء الطبائع النفسية والوقائع الميدانية، كل ذلك يؤكد أنَّ العقل المسلم ليس أقل من غيره من العقول على تطوير مناهج التفكير ونماذج الفكر وأدوات القياس.

وغنيّ عن القول: إنَّ القرآن الكريم والسنّة النبوية مصادر في غاية الغنى لتطوير أدوات لضبط منهجية التفكير، واستنباط الأفكار وصياغتها، وإحسان عرضها وممارستها. ثم إنَّ الحضارة الإسلامية عرفت نظم التقويم والإجازة سواءً في العلوم النظرية أو العلوم التطبيقية، لقد كان شيوخ المهن (شيخ الكار) يصممون أنظمة ومواقف عملية لاختبار المتدربين قبل إجازتهم لممارسة المهن.

لنأخذ بعض الأمثلة على المحددات المنهجية التي يلزم أن تؤخذ بالحسبان في جهود ممارسة التفكير الإسلامي وما يمكن أن ينتجه هذا التفكير.

واحد من هذه المحددات يختص بمنهجية فهم القرآن الكريم والتعامل مع نصوصه، وكيف يمكن توظيف مناهج متعددة وَفقاً لتعدد موضوعات الخطاب القرآني. فالتنوع والتمايز بين موضوعات الخطاب القرآني يستدعي تطوير المنهجية المناسبة للتعامل مع كل نوع من أنواع هذه الموضوعات.

أ- فمن موضوعات القرآن ما يختص بالأحكام الفقهية التفصيلية التي تحدد للمجتمع الإنساني قواعد تتصف بالثبات والاستقرار، مثل أحكام عبادات الصلاة والزكاة والصوم والحج، وأحكام الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتوارث، فهذه تتصل بالطبيعة البشرية وفطرتها السليمة، ولذلك فإن المسلم يتعامل معها على أساس التطبع والتلقي والتسليم.

ب- ومن موضوعات القرآن الكريم ما يتصل بإدارة المجتمع البشري وفقاً لما يطرأ من مستجدات الزمان والمكان فكانت نصوص القرآن فيها مبادئ كلية عامة يتم تحقيقها بطرق متغيرة تستجيب للحاجة، وتوظف الأدوات والأساليب والخبرات المتجددة وفق ما يثبت أنه الأصلح والأفضل، لتحقيق المقاصد المنشودة من هذه المبادئ، فنحن نجد في القرآن الكريم مبدأ الشورى،

ولكننا لا نجد فيه أسلوباً محدداً لتطبيق الشورى، بل تُرك الأمر لمقتضيات الزمان والمكان، ولتطوير الأساليب المتجددة التي تثبت خبرة المجتمع أنها أكثر كفاءة في تحقيق مقصد الشورى.

ت- ونجد نوعاً ثالثاً من موضوعات القرآن الكريم ولعله النوع الأكثر وروداً في القرآن الكريم، ويتمثل في القصص القرآني. والتنوع هنا تنوعٌ شديد، فقد تذكر القصة كاملة في موقع واحد مثل قصة يوسف عليه السلام، أو قصة أصحاب الكهف. وقد تذكر مشاهد أحداث القصة في مواقع مختلفة، أو يتكرر ذكر بعض المشاهد بطرق مختلفة، وكل منها يخدم غرضاً محدداً، مثلما نجد في أحداث قصة موسى عليه السلام، أو نوح عليه السلام. ويمكن أن يكون الهدف في جميع الأحوال هو الاعتبار، وتعليم القارئ للقرآن كيفية استنباط السنن والقوانين الاجتماعية.

ث- ونجد في القرآن الكريم نوعاً رابعاً من الموضوعات، ويتمثل في تحليل خواطر النفس الإنسانية وطبائعها، وملاحظة تنوع السلوك الإنساني في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. ولا شك في أن تناول هذه الموضوعات يعدّ مصدراً لفهم الطبيعة البشرية، والسنن النفسية التي تحكم سلوكها.

ج - ولا ننسى نوعاً خامساً من الموضوعات القرآنية يختص بالأحداث والظواهر الطبيعية، وتشكلات المادة الحية وغير الحية، فمنه ما يختص بنمو النبات وظهور ثمره، وتنوع ألوان الثمار ومذاقاته، ومنه تعاقبُ الليل والنهار وجريان الشمس والقمر، ودلائل ذلك على قدرة الخالق وإتقان صنعه، لكن الإشارات في هذا النوع من الموضوعات تستهدف تطوير منهج المشاهدة والتفكر في دلالاتها الكمية والكيفية، فمنه ما يكون مناهج للعدد والحساب، ومنه ما يكون توظيفاً للظواهر وحسن استخدامها.

إنّ الوعي على هذا المحدد المنهجي (تمييز المجالات المختلفة لموضوعات القرآن الكريم) يستدعي تدريب القارئ للقرآن؛ لتمكينه من تطوير القدرة الفكرية على تمييز أنواع الموضوعات القرآنية، وتحديد منهج فهمها والتعامل معها، وربطها بحياته الشخصية والاجتماعية، وبالواقع البشري كله. وإنّ تعدُّد المواقف التدريبية للفرد الواحد ولمجموعة الأفراد يوسِّع آفاق هذه القدرة الفكرية، ويكون إنجازُ المتدرب فيها اختباراً حقيقياً، وقياساً موقفياً لهذه القدرة الفكرية.

ونستطيع أن نفكر في عدد من المحددات المنهجية الأخرى التي تختص بمناهج التفكير، أو مناهج البحث، أو مناهج السلوك، التي تحدد مستوى البناء الفكري لفرد أو فئة أو مجتمع. فمثلاً من المحددات التي تختص بمناهج التفكير قدرة الفرد على استخدام أنواع محددة من التفكير، مثل: التفكير النقدي، والتفكير الإبداعي، والتفكير السنني... إلخ. فعندما يستمع الفرد إلى محاضرة معينة أو يقرأ كتاباً معيناً فكيف تكون الحالة الفكرية للفرد وهو يستمع أو يقرأ؟ هل يكتفي بأن يكون متلقياً يجتهد في أن يتذكر المضامين الفكرية لما يقال وما يقرأ، ومن ثم يكون قادراً على تضمينها لما يقوله هو أو يكتبه؟ أم سوف يجتهد في الربط بين عناصر هذه المضامين التي يسمعها أو يقرأها؛ ليكتشف ما فيها من قوة أو جدّة، أو ما يعتورها من نقص أو تناقض؟

وإذا كانت القدرة على التفكير النقدي واحدةً من الخصائص المنشودة في الفرد الذي يدخل في برنامج للبناء الفكري، فإن علينا أن نبْنِيَ أداة تقويمية تتضمن فقرات تكشف عن درجة امتلاك هذه القدرة؟ ومثل ذلك يقال عن الحاجة إلى مواقف تدريبية، ثم مواقف تقويمية في مجال التفكير الإبداعي، والتفكير السنني، والتفكير الكلي... إلخ.

ولو شئنا أن نقدم بعض المقترحات حول مقياس للقدرة الفكرية في جانبيها المنهجي والموضوعي، فإنّ هذا المقياس يمكن أن يتكون من عدد من الأقسام:

القسم الأول: أشبه بقائمة رصد أنواع المصادر التي يتوقع من الشخص أن يكون قد قرأها، وعرف موضوع كلٍّ مصدر على وجه الإجمال، بحيث يعود إلى هذا المصدر عند الحاجة إليه. ويتوقع أن تشمل القائمة تنوعا واسعاً لهذه المصادر، وتكاملاً في تغطية مجالات البناء الفكري المستهدف، مما وردت الإشارة إليه في بند عناصر البناء الفكري. وتتضمن القائمة كتباً في العلوم الإسلامية، ومشاريع أو مدارس فكرية، وأسماء شخصيات فكرية، وثقافة سياسية حول القضايا الرئيسة بمستوياتها المحلية، والإقليمية، والعالمية.

القسم الثاني: تقدير مدى الاستيعاب الإجمالي لخصائص المصادر الواردة في القائمة التي تكوِّن القسم الأول. فإذا كان الشخص قد اطلع على مصدر محدد يتعلق بالمدارس الفكرية المعاصرة، فسيكون المطلوب في فقرة من فقرات المقياس أن يحدد الشخص (في حدود مائة كلمة مثلاً) أبرز خصائص هذه المدرسة، والشخصيات الفكرية التي تمثلها، وبم تختلف عن غيرها من المدارس.

القسم الثالث: تقدير قدرة الشخص على أداء أنواع من التفكير من خلال مواقف اختبارية محددة، وتكون فقرات هذا القسم شاملة لأبرز أنواع التفكير بما فيها القدرة على الفهم، والتحليل، والتركيب، والتقويم، ودرجة امتلاك التفكير في المآلات (التفكير المستقبلي)، وربط النتائج بأسبابها (التفكير السنني)، وربط العناصر المكونة للمجموع (التفكير التكاملي)، والقدرة على تمييز الحاجة إلى الرأي الآخر، والقدرة على التفكير بالأهداف (التفكير المقاصدي)... إلخ.

القسم الرابع: تحديد المجالات التي يشعر فيه الشخص بالحاجة إلى مزيد من الاطلاع والاهتمام. إن وعي الفرد على حاجته إلى ما ينقصه من عناصر البناء الفكري، يُعد مكوناً مهماً من مكونات البناء الفكري، بحيث تجذبه هذه الحاجة وتوجهه إلى توظيف ما يلزم من الوقت والجهد لاستكمال هذا النقص في بنائه الفكري ضمن خطة زمنية محددة.

خريطة مقترحة لصياغة
فقرات مقياس البناء الفكري

١- ألفة بمفردات وعناوين وأسماء لفئات المصادر

أ- كتب في العلوم الإسلامية

ب- مصادر لمشاريع أو مدارس فكرية

ت- أسماء شخصيات فكرية

ث- ثقافة عامة عن مجريات الأحداث في الواقع

ج- ... إلخ

٢- معرفة بأبرز المضامين والخصائص الواردة أعلاه (في حدود مائة كلمة مثلاً)

أ- كتب

ب- شخصيات

ت- مؤسسات ومدراس فكرية

ث- وقائع وأحداث وقضايا معاصرة

٣- ممارسة التفكير

أ- في مستويات التفكير: الفهم، والتحليل، والتركيب، والتقويم،

ب- في أنواع التفكير: المستقبلي، والسنني، والتكاملي، والمقاصدي...

٤- برنامج في النمو

أ- وعي على مواقع الحاجة إلى النمو في عناصر البناء الفكري

obeikan.com

خامساً: خرائط تاريخ الأفكار

يُعنى التاريخ -كما هو معلوم- بدراسة الأحداث التي يمر بها الأفراد والمجتمعات في حقبة من الزمن، بالإضافة إلى دراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطبيعية وغيرها، ويمكن أن يصدق ذلك على دراسة الأفكار ذاتها بما فيها من قيم ومعتقدات، فأحداث التاريخ في أعماقها تعبير عن أفكار العظماء وحركتها في حياة الناس، وانتشارها لتعبر عن ذاتها في تلك الأزمان، من خلال تبلورها على شكل أحداث تساهم في رسم معالم العمران الحضاري في أزمانهم وأزمان من بعدهم.

تبقى الأفكار التي يراد الحديث عن تاريخها في هذا السياق، هي مجموعة الآراء والتصورات العامة التي بنتها عقول البشر عبر تتابع الأحداث، تعبيراً عن حقيقة من الحقائق، أو معنى من المعاني، مع ملاحظة تلبس هذه الأفكار بظروف نشأتها وعوامل تطورها. ولذلك نجد أن من المفيد الوقوف على التيارات الفكرية التي نشأت أو سادت في المراحل الزمنية المتلاحقة، لمعرفة نقاط الالتقاء أو التمايز بين أفكار هذه التيارات، وأثرها في التشكيل الثقافي والحضاري لواقع الأمة، في تلك المراحل الزمنية. وهذا ما يدرس عادة ضمن مبحث له أهمية خاصة بعنوان: علم تاريخ الأفكار.

تضمّن الفصل السابق عرضاً إجمالياً موجزاً لتطور ظهور المفكر وتميزه بالفكر، بعد اكتسابه لجملة من مضامين العلم والمعرفة، وفق مراحل متلاحقة، لكنّ الساحة التي ينتقل إليها المفكر -ساحة الفكر- تشكلت في التاريخ بصورة تدريجية، ربما تكون معاكسة لاتجاه الوصف السابق؛ ذلك أنَّ الفكر الإنساني بدأ مجتمعاً لدى فئة قليلة من المفكرين المتميزين عن غيرهم من عامة الناس، وكانوا يُعرفون بالحكماء أو الفلاسفة؛ وكانوا يتصفون بقدر من الموسوعية المعرفية. لكن حركة النمو المتسارعة في حجم المعرفة اقتضت الميل إلى تخصص الفرد في حقول معرفية دون

أخرى، ثم استمر هذه الميل إلى التخصص حتى أصبح الفرد متخصصاً في فرع واحد أو في جزء من فرع واحد. وهكذا ظهرت التخصصات المتمايزة، وبدأ يكثر العلماء المتخصصون، ولا يبقى في ساحة الفكر الموسوعي؛ ساحة الفلسفة والحكمة، إلا قليل من الأفراد.

بم نصف المضمون الفكري المحدد في الفقرة السابقة؟ إن هذا المضمون ليس مادة فلكية تصف الأجرام السماوية، ولا مادة طبية تصف طرق تشخيص الأمراض البشرية وعلاجها؛ إنه أقرب إلى التاريخ، لكنه ليس تاريخاً عاماً يشبه ما يدرس في التاريخ عن الشعوب أو البلدان؛ إنَّه تاريخ للفكر، أو تاريخ للثقافة، وربَّما يكون تاريخاً للعلم أو تاريخاً للأدب، أو تاريخاً للفلسفة. وبالفعل فقد تمايز هذا التخصص تحت عنوان "تاريخ الأفكار"، وأصبح له برامج علمية متخصصة ضمن الدراسات الجامعية العليا.

وكما أن كل علم من العلوم يتم بناؤه من وحدات أولية، هي حقائق العلم ومفاهيمه وقوانينه ونظرياته، فإنَّ "علم تاريخ الأفكار" يبنى بناءً من وحدات أساسية، يسمونها الوحدات الفكرية، ووظيفة المتخصص في تاريخ الأفكار هي اكتشاف هذه الوحدات الفكرية وما يطرأ من ارتباط أو انفصال فيما بينها، مع ملاحظة أن الوحدات الفكرية تتصف بقدر من الثبات، إلى درجة تمكن الباحثين من استخدامها في صورة وحدات تحليل، في قيام وانهيار الثقافات والحضارات البشرية.[1]

إنَّ دراسة تاريخ الأفكار يحمل افتراضاً يُعْلِي من قيمة الأفكار، ويُبرز أثرها في التغيرات الكبرى التي تمر بها الشعوب والأمم، وهذه الأفكار التي لها قيمة

(١) مثال على الوحدة الفكرية: فكرة التطور العضوي أو نظرية داروين، وقد بدأ في صورة نظرية لتفسير نشوء الأنواع الحية، لكن الفكرة وجدت انتشاراً واسعاً في العلوم الأخرى، وهاجرت من موقعها في علم البيولوجيا، إلى علم الاجتماع وعلم السياسة، فعرفت الداورينية الاجتماعية والداروينية السياسية.

هي نتاج العقل الذي صاغ الفكرة وعبر عنها بصورة مقنعة ومؤثرة، ولاقت تجاوباً متزايداً من الأفراد والجماعات إيماناً بها ودفاعاً عنها، وتضحية من أجلها.[1]

ومن المهم لكل صاحب اختصاص أن يتتبع تطور الأفكار في مجال اختصاصه، فحالة المعرفة في ذلك التخصص، ليست انبثاقاً فجائياً، وإنما تشكلت عبر أحداث متتابعة على مر القرون، وكانت هذه الأحداث أفكاراً تجسدت في صورة وقائع دوَّنها التاريخ. فالفكر السياسي في العالم مثلاً نشأ وتطور وحملته قيادات وشعوب وقامت حوله صراعات وحروب، وتحول إلى نظريات صاغتها عقول المفكرين والعلماء، ودونت في كتب وأثرت في قطاعات كثيرة من الأمم والشعوب، وربما لا يزال هذا الفكر السياسي يحكم عالم اليوم.

وللتمثيل على حقل السياسة نذكر موسوعة للأفكار السياسية صدرت في فرنسا، وأرَّخت بقدر من التفصيل للأفكار السياسية في أوربا من اليونان إلى القرن الثامن عشر. وما الأفكار السياسية المعاصرة إلا مراحل لاحقة لتطور تلك الأفكار.

وقد تُرجمت هذه الموسوعة إلى العربية ونُشرت في ثلاثة مجلدات بعنوان تاريخ الأفكار السياسية.[2] ولبيان حجم تغطية الأفكار السياسية في الكتاب نعرض بإيجاز شديد لمحتوياته. فالمجلد الأول: تاريخ الأفكار

---

(١) عبد الله، عصام. **علم تاريخ الأفكار**، أبو ظبي: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠٢. واقرأ كذلك:
- لفجوي، آرثر. **سلسلة الوجود الكبرى: محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي**، ترجمة: ماجد فخري، بيروت: دار الكتاب العربي ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. ١٩٦٤م.
- فوكو، ميشال. **حفريات المعرفة**، ترجمة: سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧.
- هيرمان، آرثر، **فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي**، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة)، ط١، ٢٠٠٠م.
- جدعان، فهمي. **أسس التقدم عند مفكري الإسلام**، بيروت: دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط٤، ١٩٨٨م.
- الزعبي، أنور. **مسيرة المعرفة والمنهج في الفكر العربي الإسلامي**، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٧م.

(٢) توشار، جان، **تاريخ الأفكار السياسية**، ترجمة: ناجي الدراوشة: دمشق: دار التكوين- ثلاثة مجلدات، ٢٠١٠م.

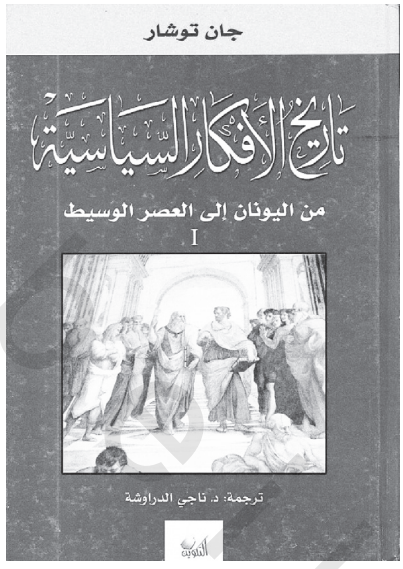

السياسية من اليونان إلى العصر الوسيط، ويتضمن تأريخاً لأفكار المدينة، والديمقراطية، والإمبراطورية، والحرية، والقانون، والأفكار المسيحية، والكنيسة، والإقطاع، والإصلاح الديني، وبداية تشكل مفهوم الأمة، وجذور العلمانية. والمجلد الثاني: تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، ويتحدث عن الأفكار التي دارت حولها الصراعات السياسية في القرن السادس عشر، وقضايا الإصلاح الديني، وقضايا الملكية، والسلطة المطلقة والثورة العلمية ونمو العقلانية والفردية، وجذور النسوية، والبرجوازية، ومفهوم الثورة والثورة المضادة وفلسفة الدولة. أما المجلد الثالث فيتحدث عن تاريخ الأفكار الليبرالية، والاشتراكية، والمادية الجدلية، والقومية والامبريالية، والفوضوية، والسلفية.

ويوضح الكتاب الفرق بين المذاهب السياسية والأفكار السياسية، فيعدُّ المذاهبَ منظوماتٍ فكرية، ترتكز على تحليل نظري للواقع، وتتشكل من مجموع العقائد الدينية والفلسفية التي توجِّه سلوك الإنسان وتتحكم في تفسيره للوقائع. أما الأفكار السياسية فتتضمن إعادة وضع المذاهب في سياق تاريخي وملاحظة نشأة المذهب وتتبع تطوره، وبيان ما الذي كان يمثله في حقبة نشأته وتطوره. فتاريخ المذهب جزء من تاريخ الأفكار، وتاريخ الأفكار لا ينفصل عن تاريخ المؤسسات وتاريخ المجتمعات وتاريخ الوقائع والمذاهب الاقتصادية، وتاريخ الفلسفة، وتاريخ الأديان، وتاريخ الآداب، وتاريخ التقنيات.[1]

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٦

سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر

ويختص الفكر الجغرافي بتفكير الإنسان في المكان والمحيط الذي يعيش فيه، وكيف كان عليه أن يسخره لتلبية متطلبات حياته، ولا شك في أن هذا التفكير بدأ مع الإنسان مع بدء حياته على الأرض. لكن مصطلح الفكر الجغرافي ينصرف إلى المعرفة التي اكتسبها الإنسان عن الأرض ودوَّنها في صورة علوم، وهي علوم يعود تاريخها المعروف إلى أكثر من أربعة آلاف سنة.(1) ويشمل المصطلح كذلك الأفكار والنظريات الفلسفية التي تختص بتشكل الأرض وظهور أشكال الحياة عليها. لكن الدراسات أخذت في القرن العشرين تعطي أهمية كبرى للحياة البشرية ومتطلباتها في الفضاء المكاني، أكثر من تفاصيل المكان نفسه، وظهرت مفاهيم محدودية الموارد على الأرض، وتزايدت دراسات الفقر وتعمق الوعي على التدمير، الذي أخذ يصيب البيئة الطبيعية مع الإسراف في استخدام الموارد وإنتاج الملوِّثات، واحتلت الظواهر الاجتماعية والاقتصادية لحياة الإنسان أولوية في الفكر الجغرافي، ودراسات البيئة الطبيعية.

وفيما يختص بالدراسات البيئية بالتحديد، بوصفها عنصراً مهماً في الفكر الجغرافي، فقد تركزت على البحث في العلاقة القائمة بين الإنسان والمكان والزمان، وتطورت قدرات الإنسان في استعمال الطبيعة المادية ومواردها المتاحة، واستطاع بمساعدة التكنولوجيا أن ينتقل في تعامله مع بيئة المكان وظواهره من مرحلة العوز والحاجة، إلى مراحل من الحرية التي صنع فيها فرصاً وإمكانات جديدة في التعامل مع الطبيعة. والدراسات البيئية تدرس هذه العلاقة التفاعلية والتكاملية، ينظر إليها في إحدى ثلاث طرق: الحتمية، والإمكانية، والبيئية، وأي من هذه الطرق يتم اختياره لدراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة يعتمد على الإجابة عن أسئلة منها: هل البيئة تتحكم في نشاطات الإنسان، وهل إرادة الإنسان وحرية الظاهرة لاختيار بدائل الفعل هو عامل محدد لكيف

(1) Rana, Lalita. *Geographical Thought: A Systematic Record of Evolution*, New Delhi (India), Concept Publishing Compary 2008, p.5.

وأين يعيش؟ وهل تكون العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة تبادلية؟ هذه الأسئلة ظهرت عبر الزمن، وسمحت بظهور ثلاث مدراس فكرية: الحتمية، والإمكانية، والبيئية، فالحتمية ترى أن البيئة أكثر قدرة من الإنسان على التحكم، والإمكانية تعطي الإنسان جميع القدرات على الاختيار، في حين أنَّ الرؤية البيئية تعطي وزناً متكافئاً للإنسان والبيئة وتكون العلاقة تبادلية.(1)

وإذا كان الفكر الجغرافي يدرس موضوعات علم الجغرافيا والفروع العديدة لهذا العلم، ومن هذه الموضوعات قضايا العلاقة التبادلية بين الإنسان والبيئة الجغرافية، فقد أخذت هذه العلاقة مذاهب شتى، وظهر فيها كثير من المفاهيم والمصطلحات، ومنها على وجه التحديد مصطلح جغرافية الفكر.

ليس المقصود بجغرافية الفكر ما ذهب إليه ابن خلدون في المقدمة، حين تحدث عن أقاليم الأرض السبعة، نقلاً عن كتاب "الجغرافيا" لبطليموس، وكتاب "رُجار" أو "نزهة المشتاق" للشريف الإدريسي، ثم أخذ يتحدث عن أثر الموقع الجغرافي لكل إقليم على سكانه من البشر، بسبب ما يتَّصف به من حر أو برد، وسهل أو جبل، وخضراء أو صحراء، أو قفر أو خصب. وعلى هذا الأساس حكم على الإقليم الرابع من عمران الكرة الأرضية بأنه أعدل العمران، وقريب منه الإقليم الثالث والإقليم الخامس، فسكان هذه الأقاليم المعتدلة "من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً... أما الأقاليم الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم، ... والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرُب عَرَض أمزجتهم وأخلاقهم من عَرَض الحيوانات العُجْم، .... فجميع أحوالهم بعيدة عن أحوال الأناسِيِّ قريبة من أحوال البهائم." وحتى الأقاليم المعتدلة فإنَّه نظراً لاختلاف ما يوجد فيها من الخصب وأنواع المأكولات من نبات وحيوان، يختلف السكان كذلك، فمثلاً إنَّ: "هؤلاء الفاقدين للحبوب والأُدْم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم

(1) Ibid., pp. 386-387

وأخلاقهم من أهل التُّلُول المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى، وأبداهم أنقى، وأشكالهم أتَمُّ وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات."[١]

وقريباً مما ذهب إليه ابن خلدون وربما أبعد منه، كان موقف الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥م) في كتابه "روح الشرائع" أو "روح القوانين"، حيث أسرف كثيراً في تقدير أثر البيئة الجغرافية على العمران البشري، واختلاف الشعوب في مستوى الحضارة والأخلاق والنظم السياسية والاجتماعية والشرائع والقوانين، والاختلاف في ميل الشعوب إلى تطوير الممارسات الديمقراطية، وتشريع قوانينها.[٢]

سوف نتجاوز هذا اللون من المعالجة، إلى لون آخر أكثر حداثة يعالج التنوع والاختلاف في الأبنية الفكرية للشعوب والأمم في البيئات الجغرافية المختلفة، ليس بالضرورة نتيجة أثر جغرافية المكان وما تتضمنه من مناخ وتضاريس، وإنما نتيجة عوامل أخرى.

من ذلك ما تضمنه كتاب "جغرافية الفكر" المنشور عام ٢٠٠٢م،[٣] ويتحدث عن الاختلاف في أنماط التفكير عند المجموعات البشرية التي تعيش في مناطق جغرافية مختلفة. والكتاب بحث عميق في علم نفس الثقافات أجراه المؤلف عبر سلسلة من الدراسات الدولية المقارنة، ووصل فيها إلى نتائج ربما تخالف ما كان مألوفاً عن الطبيعة البشرية، وفق الافتراضات التي انطلقت منها دراسات الذكاء في العالم الغربي، حيث كان يُظَنُّ أنَّ البشر على اختلاف بيئاتهم الجغرافية وألوانهم وأديانهم يستخدمون أدوات التفكير والإدراك والتذكر نفسها.

---

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص ٣٩٢-٤٠٤

(٢) مونتسكيو. **روح الشرائع**، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣، ج٢، ص ٢٩-٣٤

(3) Nisbett, Richard E. *The Geography of Thought: How Asians and Westerners think Differently and Why*, London: Nocholas Brealey Publishing, 2003.

Openkan.com

لقد طرح الكتاب المذكور أسئلة حول تاريخ الحضارات البشرية في مناطق مختلفة من العالم، وحول بعض ظواهر التفاوت والاختلاف في مجالات التميز عند الغربيين وسكان شرق آسيا. فقد لاحظ الباحث أن الصينين القدماء برعوا في الحساب والجبر، وليس الهندسة التي برع فيها اليونان، وأن سكان شرق آسيا يجدون صعوبة في رؤية الشيء مستقلاً عن محيطه، وأن أطفال الغربيين يلفظون الأسماء بسرعة أكثر من الأفعال، بينما تكون الظاهرة على العكس من ذلك لدى أطفال شرق آسيا، ويتساءل المؤلف فيما إذا كانت هذه الفوراق العقلية يمكن أن تؤثر في اتجاهات العلاقات الدولية، أو أنها تعزز مقولة "فوكوياما" حول "نهاية التاريخ" "حيث تكون الديموقراطية والرأسمالية حققتا الانتصار، ولم يبق في الأفق أية قوى قادرة على توليد أحداث مهمة"، أو مقولة "هنتنجتون" حول "صدام الحضارات"، حيث يرى العالم على حافة الصدام بين المجموعات الثقافية التي تتضمن شرق آسيا والإسلام في مواجهة الغرب نظراً للاختلافات في القيم ورؤى العالم غير القابلة للتسوية؟"[1]

وقد سادت الفكرَ الغربيَّ منذ مطالع عهد الحداثة والتنوير فكرةٌ تقول: إنَّ أنماط الفكر البشري لا بد أن تكون متشابهة، أو أنَّها يجب أن تكون متشابهة لدى الأفراد في هذا العالم، ثم جاءت أفكار العولمة مع نهاية القرن العشرين، ليحاول فيها الغرب أن يفرض على الشعوب والمجتمعات الأخرى أنماطاً من التفكير والثقافة والقيم، التي انتهى إليها التطور في الغرب الأوروبي والأمريكي، بوصف ذلك هو النموذج والمثال، الذي ينتهي إليه تطور الخبرة البشرية.

(1) Ibid., pp. 219–220

وقد حاول المستعمرون الأوروبيون الذين سيطروا على مساحات شاسعة من العالَم أن يستعمروا عقول الشعوب بعد استعمار أرضها، ووظَّفوا من أجل ذلك نتائج الدراسات النفسية والاجتماعية التي كان العلماء في أوروبا وأمريكا ينشغلون بها في نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، لا سيما فيما يختص بتطور القدرات العقلية البشرية ومقاييس الذكاء.

وقد سيطرت فكرة تشابه أنماط التفكير والسلوك العقلي بين البشر على بحوث المختبر الأول لعلم النفس الذي أنشأه وليم فونت في جامعة ليبزج عام ١٨٧٩م، وكان ينظر إلى أي اختلاف في السلوك العقلي على أنه شيء شاذ يمثل ظاهرة مرضية تحتاج إلى علاج. ولذلك فإنَّ اختبارات الذكاء بدأت أساساً لتحديد ضعاف العقول الذين يحتاجون إلى تدريب خاص.

وقد تأثرت أهداف دراسة الذكاء البشري ونتائج هذه الدراسات بعوامل متعددة لا علاقة لها بالعلم والمنهج العلمي والموضوعية، لا سيما عوامل التحيزات العرقية، والمصالح السياسية، والاعتبارات الدينية، والاتجاهات الفلسفية، حتى قيل: "إننا لا نجد حقلاً من حقول العلم امتلأ بخليط من التوجهات الانفعالية المربكة من العلم والسياسة والفلسفة كما نجده في موضوعات القياس النفسي." [1]

---

(1) Carroll, J. & Horn, J. On the Scientific Basis of Ability Testing. *American Psychologist*, 36, 1981, p. 1012.

ويمكن الاطلاع على مراجع أحدث حول سوء استعمال دراسات القياس النفسي واختبارات الذكاء في:

- Kaplan, Robert M. and Saccuzzo, Dennis P., *Psychological Testing: Principles, Applications, and Issues*, Cengage Learning; 8 edition, 2012, pp.531–567. See also:
- Samuda, Ronald J. *Psychological Testing of American Minorities: Issues and Consequences (Multicultural Aspects of Counseling And Psychotherapy)* SAGE Publications, Inc; 2 edition (January 21, 1998)

انظر على وجه الخصوص الفصل الرابع حول العوامل البيئية التي تؤثر على نتائج القياس ص٧١-١٠٨، والفصل الخامس حول النتائج التربوية والاجتماعية للقياس النفسي ص١١٠-١٤٠.

obeikan.com

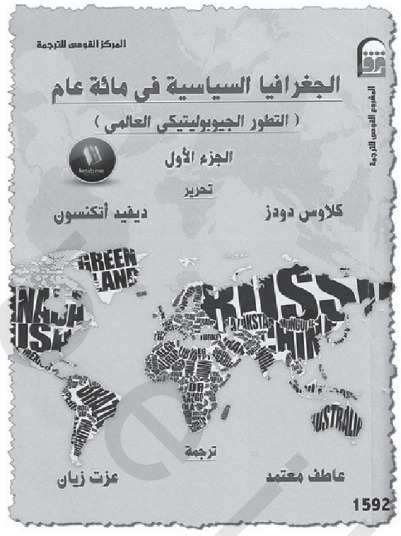

وتتوزع موضوعات جغرافية الفكر على فروع مختلفة من الجغرافيا البشرية، مثل الجغرافيا السياسية والجغرافيا الثقافية، فالجغرافيا السياسية مثلاً تختص بدراسة تأثير الجغرافيا [البيئة الجغرافية] في الأفكار والممارسات السياسية. ويذكر تاريخ هذا العلم أن أستاذاً جامعياً وقائداً عسكرياً ألمانياً هو هوسهوفر أنشأ معهد الجغرافيا السياسية "معهد الجيوبوليتك" في ميونخ، وفق طابع سري، وحشد فيه ألف عالم وفني وجاسوس، وقدم للزعيم الألماني "هتلر" من الأفكار والرسومات والخرائط والإحصاءات ما وجه تحركاته في الحرب، وربما سيطرت أفكار هذا المعهد على السياسة الخارجية لهتلر والنازية... وثمة من يرى أنَّ الجغرافيين يتحملون مسؤولية كبيرة عن التفكير في نتائج المعارف الجيوبوليتيكية في الماضي والحاضر، والدراسات الحديثة في هذا المجال تركز على العلاقات بين الجغرافيا والدولة والجيش، وهؤلاء المتخصصون بالجغرافيا السياسية يرحبون بطبيعة الحال بالرعاية التي تقدمها الحكومات، وهم في المقابل يدَّعون أنهم يقدمون بعلمهم خدمة كبيرة للأمة.[1]

وأما الجغرافيا الثقافية فهي تبحث في أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية. وثمة كتب ودراسات متخصصة في هذا الموضوع، ونكتفي بالتنويه بالكتاب الذي ألفه مايك كرانغ بعنوان "الجغرافيا الثقافية"، وقد ترجم إلى العربية ونشر ضمن سلسلة عالم المعرفة، وهو دراسة للكيفية "التي تعيش فيها

(١) دودز، كلاوس. وأتكنسون، ديفيد. **الجغرافيا السياسية في مائة عام: التطور الجيوبوليتيك العالمي**، ترجمة: عاطف معتمد وعزت زيان، القاهرة: المركز القومي للترجمة، العدد ١٥٩٢، طبعة ١، ٢٠١٠م. ص١٧- ٢٢.

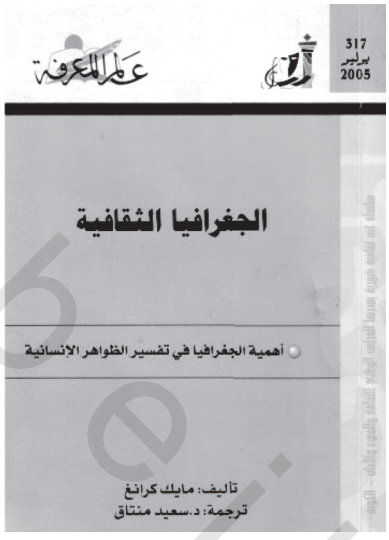

الثقافات المختلفة في الكرة الأرضية، فالجماعات المختلفة لا تتحدد باللباس المختلف والزخرفة وأساليب الحياة فحسب، وإنما توجه كذلك بنظرتها الاعتبارية إلى العالَم، وأولوياتها، وأنظمة اعتقادها وطرقها المختلفة لفهم العالَم، فالجغرافيا الثقافية تنظر إلى أشكال اختلاف الجماعات وثقافتهم المادية، وكذا الأفكار التي تجمع بينهم وتجعلهم متماسكين. هذا يعني أن هذا الكتاب لن ينظر إلى كيفية انتشار الثقافات في الفضاء فحسب، ولكن أيضاً إلى كيفية فهم هذه الثقافات للفضاء. سنقتفي -إذن- أثر الأفكار والممارسات والأشياء التي تشكل معاً الثقافات، وبالتالي تشكل الهويات التي من خلالها يتعرف الناس على أنفسهم وعلى الآخرين."[1]

ومن المهم أن نتذكر في هذا الشأن مفهوماً مركزياً في الدراسات الفلسفية والإعلامية والدينية هو مفهوم رؤية العالم Worldview، وكيف أنَّ هذه الرؤية للعالَم تختلف باختلاف البيئات الثقافية والمستوى الحضاري، وأنماط التفكير السائدة في المجتمع، لا سيما أنماط التفكير الديني.

والمقصود برؤية العالم تلك الصورة العقلية الكلية، أو الفكرة الكلية، التي يكوِّنُها الإنسان لنفسه عن نفسه وعن العالَم من حوله، وفق الموقع الفكري الذي يحاول منه الرؤية، وزاوية النظر التي يتخذها، والبيئة الطبيعية والنفسية والاجتماعية المحيطة، والنظام الفكري الذي ينطلق منه بمكوناته اللغوية وأُطُرِه

(١) كرانغ، مايك. **الجغرافيا الثقافية: أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية**، ترجمة: سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٧ ، يوليو ٢٠٠٥م. ص ٨

المرجعية... هذه الصورة الكلية هي التي تعرّفنا بالإنسانَ، عندما ننظر إليه من الخارج، وتعرّفه هو بنفسه وبالأشياء من حوله.

ورؤية العالم تصف الفرد الإنساني، وتمثل حالة من الوعي الكلي للفرد بذاته والبيئة التي يعيش فيها هذا الفرد، كما تصف حالة الوعي لجماعة من الأفراد يشتركون في هذه الرؤية، وربما تصف حالة أمة بكاملها عندما يشترك أغلب أفرادها وجماعاتها بعناصر مشتركة من رؤية العالم. وكثيراً من نُظر إلى التاريخ البشري منذ أيامه الأولى على أنه تفاعل أو صدام بين الطرق المختلفة في الوعي، فهو صدام بين الناس حول المبادئ التي يؤمنون بها والأفكار الأساسية التي يحملونها؛ ذلك أنَّ للأفكار نتائجَها، ومع ذلك فإن ثمة مستوى عميقاً من إدراك الحقيقة يجب النظر إليه عند محاولة فهم الاختلاف الفكري الذي يقع في القلب من قصة الإنسان على هذه الأرض؛ ففي الوعي الديني مثلاً يحتل الصدام بين رؤى العالم موقعاً مهماً في المعركة الروحية الخفية بين الحق والباطل، بين طاعة الله وطاعة الشيطان، وهي معركة تدور رحاها في عقول الناس وقلوبهم، ومن ثم في حياتهم ومصيرهم، منذ بدء الوجود البشري.

ومن هذه الناحية ليس ثمة ما هو أكثر أهمية من الطريقة التي يفكر فيها الإنسان بخالقه، ونفسه، والكون الذي يعيش فيه، وموقعه فيه.

وهكذا، فإنَّ موضوع رؤية العالم هو فصل في تاريخ الأفكار، والتوجهات الإيديولوجية المتعددة مثل التوحيد، والوثنية، والطبيعية، والربوبية، ووحدة الوجود.

ومن الواضح أن الدلالات التي يشير إليها مصطلح "رؤية العالم" تتداخل بشدة مع المعتقدات الفلسفية، والدينية. فالمصطلحات الدينية مثل: الإيمان والعقيدة والتصور الكلي تعبر عن مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي يحاول مصطلح رؤية العالم التعرض لها. وربما تكون المراجع الرئيسة التي تتحدث عن رؤية العالم صادرة في معظمها عن مؤسسات دينية أو كتبت لأغراض

التعليم الديني. ولعل أهم الكتب الحديثة في هذا السياق الكتاب الذي ألفه ديفيد نوجل،[1] وهو أستاذ الفلسفة في جامعة دالاس المعمدانية في مدينة دالاس، بولاية تكساس الأمريكية، وهو كتاب شامل في موضوع رؤية العالم أو الرؤية الكونية، استعرض فيه تاريخ المفهوم وتطوره منذ مراحل مبكرة في الفكر الفلسفي والديني، ولاحظ أن هذا المفهوم قد احتل في العقود الثلاثة الأخيرة موقعاً مهماً في التعبير عن الكيفية التي يفهم فيها المسيحيون العالم. ولم يقتصر جهد المؤلف على التتبع التاريخي لجذور المفهوم، بل اشتمل على تطوره حتى أصبح يستعمل على نطاق واسع في الخطاب الفكري لعدد من العلوم المعاصرة، وبخاصة التاريخ والفلسفة واللاهوت. وقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في تخليص مفهوم رؤية العالم من الدلالات النسبية التي حملها الفكر الفلسفي والعلمي الحداثي، بعد هجرته إلى دائرة الخطاب الديني المسيحي.[2]

وفي كتاب يمتلئ بالحماس الديني المسيحي حدد رونالد ناش ثلاث رؤى للعالم معروفة في عالم اليوم، وبخاصة ما يسود في الغرب، هي المسيحية، والمادية الطبيعية، وحركة العصر الجديد.[3] ومع أن رؤية العالم المسيحية في

(1) Naugle, David K. *WorldView: The History of A Concept*, Grand Rapids, MI: William Eerdmans, 2002.

(2) Ibid., 289–290.

(3) Nash, Ronald. *Worldviews in Conflict: Choosing Christianity in a World of Ideas*. Grand Rapids, MI: Zondervan Publishing House, 1992.

ورغم أن المؤلف حدد معايير معينة لإثبات صحة معتقدات رؤية العالم المسيحية ونقض مقولات رؤى العالم الأخرى، إلا أنه اعترف بأنه عانى صعوبة كبيرة في كتابة أحد فصول الكتاب المتعلقة بأن الإيمان المسيحي يتناقض منطقياً لإصراره على أن المسيح (عليه السلام) هو إله كامل وإنسان كامل في الوقت نفسه. فقد مثلث هذه القضية تحدياً معقداً لم يكن من السهل عليه معالجته ببساطة ومسؤولية في آن واحد. ومع ذلك فإنه ينصح القارئ بأن يقفز عن هذا الموضوع الذي عالجه في الفصل الخامس من الكتاب "لأن الفرد يستطيع أن يعيش حياة غنية وكاملة وسعيدة دون فهم أية قضية من قضايا هذا الفصل." (ص ١١)

رأي المؤلف هي التي يتوقع أن تسود الولايات المتحدة الأمريكية فإنها تواجه تحدياً كبيراً من رؤية العالم الطبيعية التي كانت أساس الرؤية الماركسية التي سادت لدى قطاعات كبيرة من الناس معظم القرن العشرين، أما التحدي الآخر فهو ما تمثله رؤية العهد الجديد التي لا تتناقض مع الرؤية الطبيعة فحسب، وإنما تتناقض أيضاً مع كل ما يؤمن به المسيحيون. ويخشى المؤلف أن تملأ هذه الحركة الفراغ الذي خلفته الماركسية في العالم. ولذلك فإنّه يدعو إلى رفع مستوى وعي الذات حول رؤى العالم بوصف ذلك جزءاً أساسياً من النضج الفكري، وبخاصة وأنه "على قناعة بأن قليلاً من الأمريكيين قد تعلموا كيف يفكرون برؤية العالم، ولا يدركون محتوى رؤية العالم التي يمتلكونها حتى لو كانت حياتهم تعتمد عليها."[1]

ومع أن طريقة المؤلف في عرض أفكاره في الكتاب تمتلئ بالحماسة وتستخدم مفردات الصراع في ميدان المعركة، باعتبار أنَّ "رؤية العالم المسيحية هي وسيلة الانتصار في معركة عالم الأفكار"، فإنه يؤكد بأن التفكير في موضوع الدين بطريقة أخلاقية وروحية لا يكفي، ويلزم التزود بالبنية الفكرية اللازمة للانتصار في هذه المعركة: "لأن كثيراً من قضايا التدين تعرض على أنها معارك يعيشها الإنسان ولا يرغب في أن يخسر فيها، ولذلك سيكون من المفيد له أن يعد نفسه لأداء أكثر فاعلية في عالم الأفكار..."[2]

سابعاً: ضوابط قبول الأفكار

إذا كان الفكر صفة للإنسان منذ خلقه الله سبحانه وجعله خليفة في الأرض، وزوّده بالقدرة على اكتساب الوعي بالذات وبالمحيط الخارجي، وبالحرية في الاستقامة أو الانحراف، وكانت مسؤولية الإنسان أمام الله يوم الحساب مسؤولية فردية، فإنه كان من الطبيعي أن تختلف قدرات الإنسان على الفهم والإدراك، وتختلف مواقفه في الطاعة والمعصية. وقد بدأ ظهور هذا الاختلاف من الأيام

(1) Ibid., p. 9.

(2) Ibid., p. 10.

الأولى للحياة البشرية، حين تقبل الله قربان واحد من ابْنَي آدم، ولم يتقبل من الآخر، فكان الله عز وجلّ هو الحكم في ما يُقبل وما لا يُقبل؛ لأنَّه سبحانه أعلم بدخائل القلوب وخواطر العقول، وإنّما يتقبل الله من المتقين. ونستطيع أن نتخيل أنَّ الأفكار التي خالجت ابن آدم التقيَّ هي الحرص على رضا الله سبحانه، وتقديم القربان عن طيب نفس، بينما كانت الأفكار التي خالجت أخاه، ابن آدم الآخر، هي البخل، والحسد، وقلة التقوى. يقول ابن عاشور في التعقيب على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ "وقوله في الجواب ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ موعظةٌ وتعريضٌ وتنصل مما يوجب قتله. يقول: القبول فعل الله لا فعل غيره، وهو يتقبل من المتقي لا من غيره، يعرِّضُ به أنه ليس بتقي، ولذلك لم يتقبل الله منه. وآية ذلك أنه يضمر قتل النفس. ولذا فلا ذنب لمن تقبل الله قربانه يستوجب القتل... ويحتمل أن يراد بالمتقين المخلصون في العمل، فيكون عدم القبول أمارة على عدم الإخلاص..."[1]

أما بين البشر فإن النَّبِيَّ ﷺ في حياته مع الناس هو الحجة في قبول الأفكار المختصة بالتشريع الإلهي في العقائد والعبادات. ولكن النبي ﷺ يمكن أن يراجع رأيه ويقبل فكرة من أفكار أصحابه في مسألة تتعلق بالخبرة في أمور الحياة. فالنبي محمد ﷺ مكلَّف بالتشاور مع أصحابه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد قَبِلَ فكرةً من سلمان الفارسي ﵁، في حفر الخندق حول المدينة، وقَبِل فكرةً من الحباب بن منذر ﵁، في اختيار الموقع في معركة بدر.

وتتفاوت معايير قبول الأفكار وضوابطها بين الناس تفاوتاً كبيراً. وقد عرف الاختلاف في الأفكار في الفِرَق والمذاهب الدينية والدنيوية. وما كان خروج الخوارج على عليّ ﵁ إلا لأفكار واجتهادات حول عدد من مسائل

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧م، ج٦، ص١٦٩-١٧٠.

الحرب التي دارت بين طائفتين من المسلمين. وما كان تشيُّع الشيعة إلا لاختلافهم مع غيرهم من المسلمين حول فكرة سياسية تتعلق بالإمامة. وما كان اختلاف المذاهب الفقهية إلا اختلافاً في الاجتهاد الفكري في بعض فروع الفقه ومبادئ استنباط أحكامها.

فأتْباع فِرْقة معينة لا يرون حقَّ الانتساب إليها إلا لمن يوافق سائر أفرادها في أفكار الفِرقة، وتنسجم أفكاره مع أفكارها، ويتوحَّد مع أتباعها، ويتميّز معهم عن غيرهم من أتباع الفرق الأخرى، ومعيار قبول أية فكرة جديدة هو مدى انسجامها مع أفكار الفرقة. وكذلك الأمر مع الطائفة والحزب، وربما المؤسسة والجمعية. ومع ذلك فإنَّ مبدأ حرية التفكير الذي يعدُّ من حقوق الإنسان في العالم المعاصر، قد بدأ يأخذ طريقه إلى بعض الطوائف والجماعات والأحزاب، فيأتي العضو في الحزب مثلاً بأفكار جديدة ربما تخالف الأفكار السائدة، التي يتبناها الحزب ويتوقع من كل فرد أن يتبنَّاها، فيدور حوار أو جدل أو مناقشة حول هذه الأفكار الجديدة، وقد تقبل هذه الأفكار ويحصل تطور في أفكار الحزب، وقد لا تقبل، ولكن صاحب الأفكار الجديدة يلتزم بما يتم الاتفاق عليه، انطلاقاً من مبدأ الديمقراطية ورأي الأغلبية، وقد يصر على أفكاره ويترك الحزب.

وعلى صعيد الفكر الإسلامي، فإنَّ ثمة مبادئ كلية يجتمع على قبولها وتبنِّيها كثير من الناس، من مختلف فئات المجتمع، وتمثل هذه المبادئُ الكلية مرجعيةً لقبول الأفكار أو رفضها. فأركان الإسلام وأركان الإيمان مما تجمع عليه غالبية فئات الأمة. لكنَّنا نجد اختلافاً في تفسير بعض النصوص القرآنية، وتسمح ظنِّيَّةُ الدلالة في معاني كثير من الآيات، باختلاف الاجتهاد في دلالة هذه النصوص. كما نجد اختلافاً في الأفكار المستمدة من بعض الأحاديث النبوية الشريفة، حتى الصحيحة منها، نتيجة للاختلاف في فهم الواقع، وتنزيل دلالة النص على هذا الواقع، أو انطلاقاً من الاختلاف في حجية السنة النبوية في بعض مجالات التطبيق العملي.

وسوف نجد أنَّ بعض الناس لا يقبلون الفكرة الجيدة عندما تأتي من فرد معين أو جهة معينة؛ لأنَّ ذلك الفرد لم يُعرف عنه الاتساقُ بين سلامة الفكر وسلامة السلوك، أو لأنَّ تلك الجهة اعتادت أن تتَّخذ مواقفَ لا تتَّسق مع ما هو مقبول عند أولئك الناس. ويكفي أن يُعرف عن مفكر معين يقدم أفكاراً عن الإسلام أنّه ينتمي إلى تيار فكري غير إسلامي، أو أنه لا يلتزم بالسلوك الإسلامي في مسائل الحلال والحرام، أن تُرفض أفكاره، حتى لو كانت أفكاراً جيدة، وشعارُ "كلمة حق يراد بها باطل"، واحدٌ من الشعارات التي توظف في هذا المجال.

وعند الحديث عن ضوابط قبول الأفكار، يأتي موضوع الحرية الفكرية وضوابطها وحدودها. وهو موضوع طال حوله الجدل. فثمة نصوص وردت المواثيق الدولية تعد الحرية الفكرية حقاً من حقوق الإنسان، وثمة قيود وضوابط جعلتها هذه المواثيق الدولية حدوداً لهذه الحرية، وثمة اجتهادات صاغتها منظمة المؤتمر الإسلامي تعبيراً عن موقف الدول الإسلامية، وثمة دراسات وإعلانات صدرت عن مؤتمرات أو وردت في كتب ودراسات تناقش مسألة الحرية الفكرية من المنظور الإسلامي، وتقارن ما يرونه رؤية إسلامية وما حددته المواثيق الدولية.

وواقع الأمر أنه ليست هناك حرية مطلقة لا حدود لها. لا على المستوى النظري الفلسفي، ولا على المستوى التشريعي القانوني، ولا على المستوى العملي التطبيقي. لكن موضوع حرية التفكير يختلط غالباً بأنواع أخرى من الحريات، منها حرية الاعتقاد، وحرية التعبير.

ففي الرؤية الإسلامية تعد حرية التفكير فريضة واجبة، وعبادة مشروعة، وليست مجرد حق قانوني أو اجتماعي. فالتفكر في أصول الاعتقاد في الإسلام من توحيد ونبوة ومعاد أساس لقبول الإيمان. ولا بأس في حصول شيء من الشك والوسوسة والشبه، نتيجة هذا التفكر، فثمة طرق لمعالجة ذلك، ولا بأس حتى في التعبير عن الوساوس، ونقلها إلى من يمكن أن يعين في المعالجة، كما

كان يحصل مع الصحابة رضوان الله عليهم، فيأتون إلى النبي ﷺ، فلا يستنكر منهم ذلك، بل يرشد إلى معالجته.

لكنَّ هذا الحق يتجاوز حدوده الطبيعية والتشريعية عندما يصبح الشك والبحث عن الشبهات حالة مَرَضِيّة يسعى الإنسان إلى أن يتصف بها عن وعي وإدراك، وكثير من حالات الكفر يقع بها الإنسان ليس عجزاً في التفكير للوصول إلى الحق، وإنما يكون الكفر بغياً، بعد أن يتبين له وجه الحق، وظهور البينة والبرهان. مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية: ١٧]. فمثل هؤلاء تكون حياتهم حيرة والتباساً واختلاطاً، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾[ق: ٥]

وقد تقود حرية التفكير إلى الكفر بالإسلام، واختيار دين آخر. ولا يزال الجدل قائماً حول حكم الردة في الحالات المختلفة، فإذا لم يعلن المرتد عن ردته، فهل لأحد غير الله عليه من سبيل؟ وهل كلف أحد بالشق عن قلوب الناس لمعرفة ما يعتقدون؟ أما ذلك الذي يعلن الردة، هل يعد ذلك من باب حرية التفكير التي تقود إلى حرية الاعتقاد؟ وهل ثمة فرق في الحكم بين من يعلن الردة ولكنه يبقى في المجتمع مسالماً، وذلك الذي يرتد ويدعو إلى الردة بصورة ربما تقود إلى الفتنة، ومن يرتد وينتقل إلى معسكر الأعداء ليحارب المسلمين؟

وإذا كان الميثاق الدولي للحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٦٦ قد أخضع حرية التعبير لقيود ضرورية منها احترام حقوق الآخرين وسمعتهم، وحماية الأمن القومي، أو النظام العام، أو الصحة العامة، أو الآداب العامة، فهل يمكن أن نخضع حرية التعبير عن الاعتقاد بالإعلان عن الردة، لهذه القيود؟

لا نود أن ندخل في هذا المقام بتفاصيل الإجابة من مثل هذه الأسئلة، نكتفي بالإشارة إلى أن لموضوع الحريات الفكرية من التفاصيل والآراء

المتعددة، ما يمكن أن يكشف عن مذاهب في الفكر، تختلف عما ألفناه من مقررات فقهية، كانت نتيجة التفكير في الحكم على مسائل لها خصوصيات الزمان والمكان، وكثير من المسائل المثارة اليوم لها كذلك خصوصياتها المتجددة. ولكن الضابط الأكبر في معالجة مسائل الحريات الفكرية، ليس الأحكام الفقهية الجزئية التي تأتي من باب الفتاوى، وإنما الضابط الأكبر هو ما يقتضيه تحقيق المقاصد العامة للشريعة الإسلامية في حق الفرد وحق الأمة وحق الإنسانية.[1]

خاتمة:

بعد أن تعرفنا في الفصول الثلاثة الأولى إلى مفهوم الفكر وتطوره، وإلى مستويات البناء الفكري، وإلى البناء الفكري للمجتمع والأمة، جاء هذا الفصل ليقترب من الحديث عن كيفية البناء الفكري، وعند هذه المرحلة وجدنا أن من المناسب أن نتناول هذه الكيفية من خلال الإجابة عن سبعة أسئلة هي:

- إلى أين نتوجه في سعينا لتحقيق البناء الفكري (المصادر)؟
- ما هي مواد البناء الفكري وموضوعاته (المحتويات)؟
- كيف نقوم بعملية البناء الفكري (الأدوات)؟
- كيف نتأكد من أن حققنا أهدافنا في البناء الفكري (التقويم)؟
- أين يقع تاريخ الأفكار في فهمنا لعالم الأفكار المعاصر؟
- كيف تتوزع المستويات الفكرية على المكان وما يختص به من جغرافيا طبيعية وبشرية؟
- ما ضوابط قبول الأفكار؟

---

(١) البحوث والمؤتمرات والندوات التي أنجزت في مجال الحريات الفكرية كثيرة، نكتفي بالإشارة إلى واحدة منها، وهي:

- عطية، جمال الدين. ضوابط الحريات الفكرية، **مجلة المسلم المعاصر**، العدد ٩٩ السنة الخامسة والعشرون، يناير-مارس ٢٠٠١م، ص ١٦٧-١٩٦.

وقد تطلبت الإجابة عن كل سؤال منها ملاحظة التعدد والتنوع، في كل من المصادر، والموضوعات، والأدوات، والزمان، والمكان. وهذا التعدد والتنوع يوفر فرصة للتكامل والتوازن، وبناء رؤية توحيدية، نحرص على أن تتصف بها الشخصية الإسلامية المنشودة. كما تطلبت تلك الإجابة ملاحظة الاختلاف في المستويات والمواقع والعلاقات بين تلك العناصر. وهذا قادنا إلى عرض فكرة الخرائط الفكرية. وقد أوضحنا بإيجاز فكرة الخريطة الفكرية وفائدتها في استجماع العناصر الأساس في مصادر البناء الفكري، وموضوعاته، وأدواته، واختباره، وزمانه ومكانه.

وكما ميزنا في فصول سابقة بين العلم والثقافة والفكر، فقد أكدنا في هذا الفصل ضرورة التمييز بين مصادر كل من هذه المفاهيم الثلاثة، ليتمكن الإنسان الذي يسعى لإقامة بنائه الفكري على قواعد سليمة أن يستمد ما يلزمه من المصادر المناسبة. وفي الموضوعات ميزنا بين موضوعات بناء الأمة، التي تكون عناصر الهوية والانتماء، وموضوعات بناء الرؤية اللازمة للتغير والنهوض الحضاري، وموضوعات بناء القدرة على التعامل مع القضايا المثارة والمتجددة. أما في الأدوات والوسائل فقد أكدنا أهمية التوسل بما هو متاح من الأدوات المعاصرة التي توصل فكر المفكر إلى الآخرين ليكون لفكره أثر فاعل، بما في ذلك صحبة العلماء والمفكرين والمصلحين والتتلمذ عليهم.

ولعل خريطة بناء مقياس لتقويم البناء الفكري هي أكثر عناصر البناء الفكري وضوحاً، مع أنها أصعبها عملاً وتطبيقاً؛ إذ تحتاج إلى توظيف موضوعات اختصاص علمي، هو القياس والتقويم الذي يطبق على نطاق واسع في القياس النفسي والتربوي، وقلما وُظِّف في بناء أدوات تقويم في البناء الفكري بمرجعية دينية إسلامية. وهو ميدان لا ينبغي أن يبقى خالياً من الخبرات والكفاءات. والحاجة ملحة في حشد الكفاءات اللازمة لتنظيم حلقات دراسية ودورات تدريبية متخصصة في بناء الاختبارات والمقاييس التي تتصف بالصدق والثبات والموضوعية، في مجال قياس البناء الفكري وعناصره.

وقد وقف الفصل على أهمية التاريخ والجغرافيا في تشكُّل الأفكار، فهما كما يرى كثير من الباحثين من أقدم العلوم، فالجغرافيا وجدت مع وجود الإنسان نفسه، الذي حاول التعرف على طبيعة المكان الذي يعيش فيه، وطبيعة الظواهر التي كان يشاهدها، ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن تفسير لهذه الظواهر، فكانت تفسيراته الأولى بدائية، ثم لجأ فيما بعد إلى استخدام أساليب أخرى، ثم وصل إلى ما يعرف بالمنهج العلمي في البحث، فظهرت نتيجة ذلك بدايات ما يمكن تسميته بالأفكار العلمية، ثم أصبحت الجغرافيا علماً مستقلاً يربط بين العلوم الطبيعية والاجتماعية.

من هنا عد بعض الباحثين الجغرافيا والتاريخ من أهم العلوم التي ساهمت في توطيد العلاقة بين أنواع العلوم الأخرى، على تعدد أنماطها وأشكالها، ولقد كان تاريخ الفكر، أو الثقافة من بين هذه العلوم التي أرست قواعدها أحداثُ التاريخ وتأثيرات البيئة الجغرافية على مر الزمان والمكان. ذلك أن علم تاريخ الأفكار يُبْنَى بناءً من وحدات أساسية، يسمونها الوحدات الفكرية، تتصف بقدر من الثبات، إلى درجة تمكن الباحثين من استخدامها في صورة وحدات تحليل، في قيام وانهيار الثقافات والحضارات البشرية.

وقد تبين من خلال هذا الفصل أن الفكر الجغرافي يختص بتفكير الإنسان في المكان والمحيط الذي يعيش فيه، وأن التفكير بدأ مع الإنسان مع بدء حياته على الأرض، وتتوزع موضوعات جغرافية الفكر على فروع مختلفة من الجغرافيا البشرية، مثل الجغرافيا السياسية التي تختص بدراسة تأثير الجغرافيا على الممارسات السياسية، والجغرافيا الثقافية التي تبحث في أهمية الجغرافيا في تفسير التنوعات الثقافية بين المجتمعات.

obeikan.com